«غرفة ضيقة بلا جدران»

مجموعة قصص

بقلم
السيد نجم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦

نجم ، السيد
غرفة ضيقة بلا جدران : مجموعة قصص / بقلم:
السيد نجم .- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،
٢٠٠٦.
١٥٦ ص ؛ ٢٠ سم
تدمك X ١٥١ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ القصص العربية القصيرة
(أ) العنوان :

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٩٠٧/ ٢٠٠٦

I.S.B.N 977 - 419 - 151 - X

ديوى ٨١٣,١

• إهداء

إلى

كل التجارب .. الخاصة

العامة أو العامة

الخاصة

الإخراج الفنى

فاتن رضا

القسم الأول

«غرفة ضيقة بلا جدران»

-١-

معذرة يا سيد الألم

هبت الريح المنحدرة من نشيد الألم، ولأنه لم يتاجر فى بنات الهوى ولا يعرف سوى الكتب القديمة.. تلبسته الدهشة.

الدهشة.. أوقعته فى عتمة المجهول، وفى العتمة توصد أبواب البكاء، وتفتح مزاليج الدرب المحتوم.

أصبح جسده أكثر خفة، ليس بسبب أن فقد خمسة كيلو جرامات من وزنه خلال اثنى عشر يومًا، ولا بسبب ذاك الألم الذى نهش أمعاءه فجأة.

شعر وكأن خرطوم نقل المحاليل المثبت فى ذراعه اليمنى أو اليسرى، مع خرطوم «الرايل» الملعون الذى رشق فتحة أنفه اليمنى إلى البلعوم ثم المرىء فالمعدة.. معًا يحملانه ما بين السماء والأرض.

وإن بدا للرائى الذى يجهل ما يشعر به من خفه، أنه مثبت على سريره.

- «إن شاء الله خيرًا .. لا تحزن، اطمئن»

قالها «محمود» الممرض المؤهل بشهادة دراسية معتمدة وبعشر سنين من العمل فى المستشفى الخاص، بدا وكأنه يزف البشرى، وهو يدرك خطورة سقوط خرطوم «الرايل» قبل إتمام دوره، لم تنحصر مهمة الخرطوم على نقل إفرازات معدته الغامضة إلى كيس خارجى، هونت عليه أعراض القىء المستمر والفواق المزعج التى ألمت به بسبب شلل أمعائه المفاجئ، حتى أن الطبيب المعالج حذره قائلا: «إنها حياة أو موت.. لو فشلت فى إدخال الخرطوم من أنفك سوف تموت خلال ساعات معدودة» قالها الطبيب مع اللحظات الأولى لدخوله المستشفى!

شعرت الزوجة بالقلق، لم تطمئن كما طلب الممرض منها، تمنى لو تشعر بالسعادة التى غمرته لتخلصه من ذاك الخرطوم!!. لم تترك للأمانى فرصة لأن تزدهر، أسرعت إلى رئيسة التمريض. عادت فورًا، أخبرت زوجها: «محمود الممرض أخبر الجميع، ووصل الخبر كما البرق إلى الاستشارى الكبير المعالج»!.

طلب من زوجته أن تقرأ له من الجريدة، وأن تضىء شاشة التلفاز، لعله ينشغل عن ألمه الذى لم يبرحه بعد، وإن خفت وطأته قليلاً.

.. هروب متعهد حفلات «أوبرا عايدة» دون سداد مستحقات الفنانين، المتعهد حمل معه مليونين ونصف المليون جنيه.

.. «ليندا فرانكلين»، سبع وأربعون سنة، تعمل فى مكتب التحقيق الفيدرالى.. كانت تتسوق من المحل التجارى فى إحدى ضواحى واشنطون، وأصبحت الضحية التاسعة لقناص مجهول أزعج العاصمة الأمريكية.

.. يقول «بوش» رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن الاعتداءات الإرهابية فى الكويت واليمن وإندونيسيا مخطط واحد.

كان يتمنى أن يقتنص أحلامه الطائرة هناك، لم يتابع اللعبة. يتجدد الألم الذى حير الطبيب الكبير، وطلب عمل أشعة مقطعية على البطن فورًا.

اختلق المريض سماء تخصه وحده، خط شريعته، واعتنق الحكمة التى ما كان يعرف شيئًا عنها.

«الاعتياد» يفقد الرأس ملكة التفكير والتفكر، وفى الألم والعجز محطة لتجاوز اعتيادية الأيام والليالى والأشياء. وأن فى تناول «الطعام» نعمة لا يدركها أصحاب عادة تناوله ثلاث مرات يوميًا، وربما أكثر.

تجاوز الرجل ما دار برأسه، سأل زوجته التى ما أن سمعته ظلت تضحك طويلاً على الرغم من حزنها الدفين على جسده المعلق

بالخراطيم. قهقهت وهو مازال يلح جادًا يقول: «أريد أن آكل طبق بصارة»!!

حاول إقناعها، لعلها تتعاطف مع رغبته تلك: «هل تعلمين ماذا أرى منذ صباح يومنا العاشر هذا فى تلك المستشفى؟» . لم ينتظر إجابة: «رأيت طبقًا معبأ بالبصارة يفازا: ى فى سقف الحجرة.. أنفى تشم رائحة التقلية والنعناع!!».

يا لها من وجبة سخية وشهية، تلك «البصارة» التى لم يتناولها منذ خمس عشرة سنة، منذ أن تزوج التى مازالت تضحك.

خال نفسه مع «البصارة» يصطاد فاكهة محرمة سوف تنزعه من جسده المقيد إلى سماء أحلامه الغامضة!.

تناول اللهفة نحو يوم آخر، يتمنى لو يعانق الغد وبعد الغد. لكن العصافير بلا أجنحة، وأحشاؤه التى قفزت من خلف جدران بطنه تعلقت بألسنة النار.

لم تكن تلك الورود المقيدة فى غلالة من الورق السلوفان تشعره بالبهجة أو الأمل، لمحها تذبل يومًا بعد يوم، وعندما قررت زوجته تسليمها إلى عاملة النظافة.. تجاوز كل ألم. علا صوته ونهرها: «لن يحدث، دعيها تذبل ولا ترميها فى سلة المهملات».

صبرت الزوجة حتى انتهى من كلماته المنقوصة، وقد نطقها ممزقة. ثم قالت: «لن ألقى بالباقة غالية الثمن تلك..». كان يعلم أنها تتكلم عن تلك الورود الصناعية التى بلا رائحة، ولم تذبل.

لم يجد فى نفسه القدرة على المناكفة، لكنه حاول دون أن ينطق بكلمة واحدة، تابع محاولته الخاصة جدًا فى اقتناص أحلامه من جديد .. وحده.

تعقب الرجل المريض سبل المقاومة .. وإن بدا مستسلمًا للشكشكات والخراطيم المعلق بها. ممدد الذراعين، فيبدو الرأس بمستوى الجسد، ومع ذلك لا يشغل من مساحة السرير إلا القليل، ظن أنه تأقزم أكثر من اللازم.

تظن جماعات الزوار المتراصة بين جوانب الحجرة التى ضاقت بهم، وكأنه ليس متابعًا لثرثرتهم. إلا أنه بقى متابعًا ملهوفًا، وبقى مشاركًا وإن لم ينبس ببنت شفه.

الخبيث عقد عقدًا مع قوى غامضة وصادقته، قال لها: افتحى الأبواب أيتها الريح الشديدة، افتحى النوافذ أيتها العصافير العنيدة، افتحى الأرحام أيتها المولدات الماهرات، افتحى النار أيتها الحرب المقدسة.

-٢-

معذرة يا سيد الحرب

كل صباح جديد، كان يبحث عن يوم آخر، وعن غرفة بلا أبواب ولا نوافذ.. بلا سقف.. يحلم لو يسير فوق طريق أخرى غير التى وجد جسده عليها.

تمنى لو يعتنق دربًا يجهل الألم، فيه يسمع أصداء صوت خطواته عاليًا، وأنفاسه رتيبة مستقرة، مع صوت فكيه ولسانه يلوك جرعة ماء.. الماء الذى لم يتذوقه منذ بداية الوعكة. آه .. يا لمذاق الماء، نعم للماء مذاق، قالها ونظر إلى زائريه ذات مرة. بعد صمت قالوا: نعم.. نعم، للماء لون وطعم ورائحة!.

* * *

خلال زيارته الأولى، اكتفى الطبيب بنظرته الباردة غير المبالية، لتؤكد ما صرح به لسانه: «سوف نفتح بطنك بنسبة سبعين فى

المائة، لعلنا نعرف سر شلل أمعائك ومعدتك، سر الانسداد المعوى الذى تشكو منه».

لما تعلقت عينى المسجى فى صمت بشفتى الرجل أكثر، سأله إن كان قد أجرى عملية جراحية منذ فترة قريبة، فأومأ المريض، ووجد الطبيب ما يقوله، سأله عن تاريخه المرضى، عرف أن مريضه لم يصب فى معارك أكتوبر ٧٣، لكن بسببها. حاصرت القوات الإسرائيلية وحدته الطبية، تركها الجنود والأطباء بعد نقل المصابين إلى مستشفى السويس عبر مدقات جبل عتاقة، عاد مريضه مع أفراد الوحدة ثانية بعد اتفاقية فض الاشتباك. أثناء إعادة تجهيز الوحدة من جديد، سقط مغشيًا عليه من الألم، كان بسبب فتق سرى، لم يشف إلا بعد إجراء عملية جراحية عاجلة، فهمس الطبيب وكأنه يتحدث إلى نفسه: «ربما الانسداد بسبب حالة «التصاق» بعد الجراحة القديمة، وأخشى ما أخشاه أن يعود الالتصاق ثانية وبسبب الجراحة الجديدة!!»، فالتقط الهامد على سريره ومضة جب لا يعرفه ويخشاه. لم يشأ أن يبوح بما راوده.

* * *

إلا أن يموت وحيدًا، ذاك الذى يأتى من جهات شتى تحت رذاذ المطر وصفير البرد ووهج الشمس.. وفوق سرير العجز.

يوم ارتدى «بيادة» المجند مع زملاء كليته فى زمن الحرب الأخيرة بعد معارك ٦٧، لم تطارده خفافيش الجب اللئيمة ليلاً، ولا أشواك الصبار.

تذكر أيام تجنيدهم الأولى، كانوا يمزحون بالموت وعليه، فنشروا نعى «محروس»، زميلهم (الراقد بينهم) فى الجريدة الصباحية! لم يَهَبْ أخوهم الجُب، وضحكوا لليلة كاملة حتى وهم داخل محبسهم فى سجن الوحدة، عقابًا لهم وتنفيذًا لأوامر قائد مركز تدريب الخدمات الطبية، وقد شاركهم الضحك فيما بعد قائلاً: «تمزحون بالموت.. الموت!!».

* * *

احتواه الأرق وشغل نفسه بالأسئلة لساعات طويلة. سأل أمعاءه العاجزة أن تلين، وربه أن يستجيب لدعاء الداعين، تلك الأدعية التى التقطها بأذنيه من بعضهم فور رؤيتهم له مسجى فى هدوء، والتقطها بعينيه فى نظرات زوجته التى رافقته الغرفة.

لولا تلك البحوث المتتالية الكثيرة.. من أشعة مقطعية، ومنظار قولون، وأشعة تقليدية، لولاها لاعتقد أن الهلاك أقرب مما يتوقع. كلما بدأ فحصًا جديدًا عاوده الأمل.

شعر وكأنه يحارب الآتى، وخلف عتبه الغرفة تنام جنوده البائسة.

ما كان يعرف عن جنوده إلا المشاكسة، غير مبالين. صوت انفجار هنا، وأزيز طائرة هناك، ودوى مدفع بعيد، وآهات لا تنقطع فى العنبر الذى يقوم على تمريض رواده بالمستشفى الميدانى العسكرى فى زمن الحرب.. عند الكيلو ١٠٥ طريق القاهرة - السويس.

مع بداية المعارك صام الجنود والأطباء، المصابون والمعالجون.. بغية ملاقاة ربهم تائبين، وفى فترة تالية لمواجهة حصارهم، وقت أن

حاصرتهم القوات الإسرائيلية بعد ثغرة «الدفرسوار»، وقد نجحت فى الوصول إلى طريق السويس الأسفلتى.

كان فى البداية يتفاخر بقدرته على الصوم وأنه يعف الطعام والشراب.. غير مجهد مع مشقة العمل ليل نهار، ومع آهات القادمين من أرض المعركة شرق قناة السويس بعد عبور القناة.

فى ذاك اليوم البعيد، اليوم الخامس عشر من بداية المعارك انتابته وخزه فى أمعائه للمرة الأولى، ولم يكن يستشعرها من قبل. يوم أن صدمه مشهد علمهم أمام حدود وحدته عندما لمح الخطين الزرقاوين يحتضنا نجمة داوود السداسية، تذكر شعارهم: من النيل إلى الفرات!!.

فى تلك الأيام البعيدة لم يشعر بالحصار، غرفته موصدة الأبواب والنوافذ هى الحصار..

* * *

راح المريض ينظر مليًا فيما حوله جاحظ العينين، لم تستطع زوجته الرد على سؤاله: هل لم يعد أمل فى شفائى..؟ انقضت خمسة أيام بلا طعام ولا شراب، مرشوقًا فى سريرى، معلقًا فى كيس جمع إفرازات المعدة، وزجاجات المحاليل؟!.

على غير توقع نظر بطرف عينيه نحوها.. زوجته صامتة على غير المعتاد، فشعر بالندم. يبدو أنه عبء تنوء عن حمله، يعرف

عنها قدرتها الفائقة على مداراة مشاعرها إلى غير حقيقتها. يعلو صوتها بالضحك مرة، وبالصراخ فى وجه الممرضات مرة.. ودائمًا تبدو قوية أكثر من اللازم!

* * *

انقطعت صلة جماعة الرقباء الطبيين فى المستشفى الميدانى ليومين متتاليين منذ بدء المعركة، وهب الجميع نفسه لدشمته، يقوم بالعمل على رأس مجموعة المرضين الجنود.

ولما كان المصابون قلة، والعزلة مرة، ملوا محبسهم الاختيارى. مع اليوم الثالث لبوا نداء زميلهم «بطرس» الذى شق هدوء المغربية، وصاح وسط الدشم قائلاً: «ميعاد الرضعة يا جماعة!!». خرجوا إليه، دخلوا دشمته، تناولوا ما أعده من طعام. أكل معهم وقد صام يومه عفوًا أو جبرًا، فقط حقق رغبته منذ أن التقوا للمرة الأولى بمركز تدريب الخدمات الطبية منذ سنوات.. أن تأكل مجموعة الرقباء الطبيين معًا، حتى أيام الحرب!.

* * *

حديث المسجى على سريره لزوجته الصامتة عن مذاق الطعام وحلاوته فى زمن الحرب، وهب هواء الغرفة نسمة ندية، معبأ بكل روائح الأطعمة المحرمة عليه، فأصبح الجو منعشًا، وإلا لماذا علا صوته، وبدت بشرته هكذا مشرقة؟!.

* * *

وافقت السلطات المركزية بدعم الحكومة الفيدرالية وإمدادها بكل الإمكانات المناسبة للقبض على السفاح الغامض فى واشنطن.

بوش - رئيس الولايات المتحدة الأمريكية - فى تصريح له: سوف نسقط النظام الحاكم فى العراق وعلى رأسه صدام حسين إن لم يوافق على عودة المفتشين الدوليين، وإن وافق!

أحدهم أعلن أن متعهد حفلات أوبرا عايدة لم يهرب، بدليل أنه ترك مدير أعماله فى القاهرة، كما أعلن أن مدير الأوبرا سدد كل مستحقات الفنانين من خزينة الأوبرا.

تعثر ذهنه، لم يجد تفسيرًا للألم الذى لم يبرحه على كل محاولات الطبيب الكبير. أخيرًا قالها صريحة: «سوف أنتهى من عمل منظار القولون، وهو الذى سيوضح الأمر كله بعد أخذ عينات لفحصها باثولوجيًا».

أضاف مبتسمًا بعدها: «وسوف نحدد الجزء الذى سنقطعه فى العملية الجراحية.. إن كان قصيرًا أو طويلاً!!».

عرف أنهم يبحثون عن ورم خبيث فى أحشائه فقال فى نفسه: «مازالت التفاصيل بعيدة.. مازالت الحرب مستمرة».

- ٣ -

معذرة يا سيد الاحتمالات

شعوره بأنه كائن على طريق الانقراض، جعله يبدو وكأنه منتبهًا عنوة وشاردًا فيما يسمع ويرى، عنوة أيضًا ومدفوعًا إلى عالم الاحتمالات.

أخبره الطبيب هذا الصباح: «الانسداد المعوى له أسبابه.. ربما التوت الأمعاء، أو اندغمت فى بعضها البعض، ولعلها انسدت بسبب ورم نجهل حجمه وأسراره، واحد منها وراء ما تشكو منه، ولا أستطيع أن أحدد الآن». ولأنه لا يجزم بشىء ولا ينفى، اكتفى بمتابعة أبحاثه، أمر بتجهيز مريضه لعمل أشعة «بالباريوم» على القولون.

بدا وكأنه قرر أن يفرض نفسه على هذا العالم، فتشاجر مع الممرض النوبتجى ليلاً، والمتكفل بمتابعة تعليق زجاجات «الجلوكوز» و«كلوريد البوتاسيوم» و«رينجر».. الواحدة تلو الأخرى.

منذ وخزه الإبرة الأولى، اعترف الجميع أن مريضهم حالة خاصة لا ينجح معها سوى الممرض «على». أوردته اختفت، يظن من يبحث عنها أنها هربت منه، وإن كانت حالة شائعة مع بعض المرضى إلا أنه كان أكثرهم إزعاجًا.

نقلوا «الكانيولا» تلك الأنبوبة البلاستيكية المثبتة بإبرة مناسبة، ليتصل بها خرطوم عبوة المحاليل، نقلوها أكثر من عشر مرات من موقع إلى آخر على امتداد الذراعين والكفين. وإن بدت ذراعاه متورمتين.. زرقاوتين.. لم يفلح معها دهان «الهيموكلار» شائع الاستخدام لعلاجها.

سب المريض «عليا»، اتهمه بأنه وراء آلام ذراعيه المتورمتين، لاهو ماهر ولا يجيد شيئًا فى مهنة التمريض!!.

كان الممرض الشاب أكثر ذكاء.. لم يعقب!!.

* * *

بينما انتهى فنى الأشعة البدين القصير اللئيم من التجهيز السريع لإجراء «أشعة بالباريوم على القولون»، توجس المريض خيفة من شـردة الرجل الذى يبـدو وكـأنه يخلو من أى شىء تحت الجمجمة.. يتحرك فى آلية غريبة، لا ينطق ولا ينظر إلى مريضه، ولا حتى إلى الأشياء والأجهزة من حوله. تابع الإجراءات برشق ذاك المبسم الطويل فى مؤخرة المتوجس خيفة والمرتعد بسبب الوهم الذى تلبسه أو بسبب برودة منضدة جهاز الأشعة المعدنية.

ليبقى المبسم داخله حتى انتهى فنى جهاز الأشعة من تفريغ كل محتوى العبوة، سأله إن كانت الكمية لترًا، أجاب الرجل بل أكثر من لترين: «وإن شعرت بالضيق أو الألم الزائد أخبرنى».

حتى وإن شعر بالألم، لن يخبره، لن يضع العراقيل أمام قراره الخاص جدًا: «لن أدع لهم فرصة واحدة لاغتيالى.. سوف أنفى كل معالم عالم الاحتمالات الذى فرض علىّ فرضًا».

كان على فنى الأشعة أن يلتقط له عددًا من الصور قبل تفريغ «الباريوم» من بطنه.. فى دعة وسكون كان ينفذ الأوامر ويلبى طلب السيدة «هند» رئيسة التمريض التى تبدو أكثر الوجوه انفعالاً من حوله، كانت كل الوجوه فى مركز التصوير بالأشعة، والكائن ببدروم المستشفى محايدة وربما بليدة، إلا إياها.. مفرطة النشاط والحركة والكلام والنظرات المحدقة عن غير داع.. السيدة هند والسيد الوقور أيضًا.. ذاك الطبيب الذى التقطه منذ أول مرة.

فيما تركه الممرض على المقعد المتحرك بالممر الضيق، لمح ما لم يستطع تفصيله فى أول الأمر، التقط أحدهم مهيب الطلعة، وقور الملامح، يطل برأسه من خلال فراغ إحدى الأبواب المواربة والكثيرة والمطلة على الممر.

بقى صامتًا على صورته حتى اضطر إلى أن يقلص عضلات وجهه على هيئة الابتسام. وكيف لا يفعل وقد انفلت الوقور المهيب من برواز باب الغرفة، تقدم نحوه.. سار بخطوات ثابتة، اقترب منه، ابتسم، ربت على كتفه، قال: «مساء الخير.. كيف حالك؟».

تعثر ذهنه، فقد القدرة على تفسير سلوك الطبيب، وقد تطوع لتحيته بلا معرفة سابقة.. هل الشفقة من جراء ما يعلم، وهو ما لا يعلمه المريض.. أم هو قدر من المواساة وبث الثقة فى مريض مضطرب. فلما أنهى الطبيب الوقور مهمته عاد واختفى خلف الباب الموارب ثانية؟! سأل المريض رأسه: لماذا أجد دومًا تفسيرين لكل ما أسمع وأرى؟!.. ما كنت كذلك!!».

* * *

قدره اعتياد الألم، وفى كل مرة يبدو كما الأنثى التى تلد للمرة الأولى أو حتى العاشرة، تشكو من ألم الوضع، وبعد الولادة تنسى أفاعيل الألم فيها!.

سعد مرة لأنه اكتشف حقيقة علمية فى الألم، اكتشفها على نفسه، يوم رفض طبيب الأسنان إعطاءه ما يخفف عنه، ورفض أن يخلع الضرس المسوس. علل الطبيب رفضه، بأن الألم يبقى ويزيد حتى درجة يفقد فيها الإنسان الإحساس بوخزاته، وهو ما تحقق!. منذ ذلك اليوم أعلن المريض شعاره الشهير عندما يشكو أحدهم من الألم: «سوف يتعب الألم ويذهب».

أعلن مسئول فى وزارة الثقافة، أن كل ما قيل حول منتج أوبرا عايدة مجرد إشاعات (ويؤكد أن احتمال هروبه غير وارد).

أعلن مسئول أمنى أمريكى كبير أن الضحية العاشرة للسفاح لم يمت، وإن كانت إصابته خطيرة (ويؤكد احتمال أن يكون السفاح المجرم من الإرهابيين العرب أو المسلمين).

.. بوش يقول أن ضرب العراق والتخلص من نظام حكم سفاح العراق الذى قتل شعبه وجيرانه قريبًا جدًا (ويؤكد احتمال أن تكون الضربة الأولى بعد قرار مجلس الأمن أو بدونه).

ألقى الرجل بالجريدة، شعر بالاختناق، يرغب فى التنفس العميق، وكأن هواء الغرفة أقل من احتياجه. سدد نظرة إلى النافذة، سألته زوجته إن كان يرغب فى فتح النافذة، ابتسم لها على أمل أن يشعرها بالطمأنينة وعلى احتمال محو ما فهمته من نظرته الصامتة.

* * *

أحد الزوار اقترب من أذنه فور أن قبله على جبهته، همس قائلاً: «إن الألم وهم صنعه عقل الإنسان وحده».

بدت الدهشة على وجه الراقد مستسلمًا، لم يعقب، وصنع بسمة مشجعة لأن يتابع صاحب اللحية البيضاء. وإن كانت لحية فنية وليست صوفية.. إلا أنها أكسبته وقارًا، وأحاطته بالأسئلة من كل أصدقائه وزملائه القدامى فى مجالى الصحافة والأدب.

تابع «علام»: «من يعتقد أن قوة الاحتمال تتوقف على قوة الإيمان أى قوة إيمان المرء.. فهو على خطأ».

سأله المريض وقد شعر بالاستفزاز: «كيف؟ هل تعنى أنها تتوقف على العقل؟».

تابع صاحب اللحية الشهباء: « وأيضا لا تتوقف على قوة الفكرة فى العقل.. وإن استندوا على ظاهرة رجال السيخ أو السائرين فوق جمرات النار».

أشاح المريض برأسه، لم يشعر برغبته فى الجدل، ولا فى وضع الاحتمالات والجرى خلفها، مل اللعبة.

فهم الصديق، تابع وحده: «الأفضل هو الانصهار بين حدى البعد الإيمانى والفكر البشرى.. فإذا كان الألم يواجهنا من واقع الحياة اليومية أو من داخل أحشائنا، فهو قدر من أقدار الله، لذا فالعمل على مواجهته واحتمال تحطيم الألم هو قدر أيضا».

-٤-

معذرة يا سيد السقوط

هل كان يطير عندما خال نفسه يسقط؟.. شعر وكأنه يمشى على سحابة، متحركة، فتلاشت فجأة!!

تمنى لو أصبح حبة لقاح تحملها الريح إلى حيث تشاء.. أينما تسقط سوف تبقى «حبة لقاح»، قادرة على الإخصاب لو صادفها «تويج» زهرة أو لم يصادف.

كان موقنًا من قدرة خفية لايدريها فى نفسه من قبل أن يتحمل الجوع والعطش، وإن لم تطاوعه الأمعاء الغاضبة.. وإلا لماذا يشم روائح طشة تقلية الملوخية، وشواء اللحم الضأن؟ ولماذا يسمع صوت هرس العيش الناشف، وفسخ الطيور المحمرة؟! بل بما يبرر رؤيته لألوان الخضراوات والفاكهة على غير مسمى ألوانها.. أحمر الطماطم غير الأحمر، أخضر الكوسة غير الأخضر، كل الألوان على غير التى يعرف!

ثم لماذا تفرغ لمشاجرة زوجته لأن تأكل ولاتنشغل بشىء فور إحضار عاملة البوفيه لصينية الطعام..؟ فضحكت فى ذكاء قائلة:

«لاتقلق سوف آكل لى ولك!!»

* * *

كثيرًا ما كان يسأل رأسه: لماذا هم ها هنا حول سريره، بينما هو هناك.. مع زملاء الحصار فى زمن الحرب البعيد؟

غلبته لحظة اعتراف، فتذكر واقعة نقل المصابين من وحدته إلى مستشفى السويس العسكرى. فى اليوم الخامس من الحصار، قرر قائد المستشفى الميدانى الانسحاب، بعد إصلاح إحدى سيارات «الزل» لنقل الأحياء من نزلاء المستشفى الميدانى، زاد العدو من استطلاعاته، وهو ما فسره البعض باقتراب ميعاد اقتحامهم لموقع الوحدة.

منذ الثانية عشرة حتى الرابعة بعد الظهر، نفذ مهمة حمل المصابين من داخل الدشم إلى السيارة، ظنوا أنهم أسوأ حالا من أفراد الوحدة، وتحمل عبء حملهم واعتلاء السيارة، تكدست الأجساد المنهكة المريضة، حتى سعت السيارة الخمسين مصابا!!

عملوا جميعًا فى صمت وهدوء، حتى جاء الشيطان الطائر.. طائرة على ارتفاع منخفض تزأر.. لا يدرى إن كانت للعدو أو من طائراتنا. تقترب.. فيعلو الزئير أكثر. قبل أن تتجاوز الطائرة موقع الوحدة، وقد همت السيارة بالتحرك.. كانت جملة المصابين على الأرض.. يزحفون!

خلع خوذته، وضعها تحت عجزيه وجلس صامتا، استطاع أن يفسر المشهد ، هؤلاء الجنود ارتبط صوت الطائرة معهم بصوت الانفجارات والآهات والموت.. فسعوا للنجاة!

تمنى لو يتماسك، وقف مستجمًعا قواه. على الرغم من الرضعة الهزيلة التى يتناولها مع مجموعة الرقباء الطبيين بعد الحصار، بعدما حرم الجميع من الوجبة الساخنة ، فقط قطع من البسكويت الخشن الصلب المغموس فى كوب من اللبن البودرة غير الذائبة فى بعض من محتوى زجاجات الجلوكوز.

عندما وجد فى نفسه القدرة على النطق، قال: «من منكم يستطيع اعتلاء السيارة وحده يفعل.. لن أتحمل معاودة حملكم ثانية». ما كان خلال الدقائق التالية يرشق لحظات التذكر بالألم ... فقد تذكر أحد المصابين، وقد تعلق به، طالبًا إعطاءه الزمزمية المعلقة فى قايش بنطاله.. فتخابث وافتعل الغفلة، وذهب بعيدًا. برر ما فعله لنفسه متمتمًا: «ماذا لو أخذ مدخر المياه منى، ثم قرر القائد الانسحاب، والفرار إلى جبل عتاقة..؟!»

على غير توقع صاح فى زوجته:

«افتحى جهاز التكييف يا عزة.. أشعر بالاختناق».

- «مفتوح على أعلى درجة!»

ولم تشأ أن تزيد، وإن بقيت محدقة نحوه فى صمت. اقتربت من عينيه، سألته دون أن تنطق، فأجاب: «التبس على، قلت فى نفسى.. يحتمل أن يكون الجهاز مغلقًا!!»

رتابة الأيام والليالى جعلته يعجز عن حساب عددها. تلك الرتابة التى جعلت عامل المصعد فى انتظار الزوجة كل صباح، للقيام بمهام اليوم الجديد.. شراء الجريدة وبعض الكتب التى تظن أنها تليق باهتمامات زوجها. ربما تسعى لأن تجذبه إلى دائرة يحبها بعيداً عن الألم، لم تكن تعلم أنها بذلك تشجعه على السقوط أكثر فى دائرة ألم جديدة.

الرتابة تلك جعلت انتظار الزوار من مهام العمل اليومية للزوجة، لعلها بذلك تخرج من دائرة ألم ملاحقة زوجها وحدهما، فلا تلحظ ملامح انهياره لحظة فلحظة.

بعض الزوار بدا معذبًا بتلك الزيارة، ومع ذلك يعاودها، كما الفراشة التى تنجذب إلى نور النار فتسقط فى لهيبها.. منهم من لم يخف دمعاته، وفضل الاكتفاء بالاتصال التليفونى.. ومنهم من لم يره فى فترات الصحوة، جاء لأن فى زيارة المريض ثواب لايتركه مؤمن صادق الإيمان.

أما أصدقاء القمر من الزوار، فقد عرفهم للمرة الأولى وإن كان منهم أصدقاء عمره!.. يدخلون الغرفة فى صمت، يجلسون على مقربة منه، يمضى الوقت دون كلمة واحدة، يختمون صلاتهم، ويذهبون.. كأنهم يقولون: «يا شمس أوجاعنا، خبيئة أنت خلف العيون والألسن».. ولا يدرون أن الخبيث المسجى على سريره، قرأ كلمات كتابهم كلها!

* * *

واتته صحف قديمة، تمنى ألا يطالعها ثانية، فرضت وجودها عنوة. طالع ذاك الذى يحتفظ بوظائف شتى ، لايتحملها بشر.. أشاع بوجهه.. قرأ عنوة:

.. القبض على رئيس البورصة وبنك الائتمان الزراعى ووكيل وزارة الزراعة، وثلاثين وظيفة قيادية أخرى!

أقسم لنفسه أن السير فوق الماء أهون مما يقرأ عنوة، عن ذاك القاتل بلا هدف إلا القتل.. قرأ: .. طالب مفصول من الدراسة بأمريكا، اقتحم مدرسة للأطفال، وأطلق النار عشوائيًا على التلاميذ الصغار.

أما وقد انتابته رعدة لايدرى سببها، ألقى الجريدة التى واتته: «بوش» يعلن أمام الصحفيين وكاميرات المصورين، كان سائرًا ولم يتوقف لشرح وجهة نظره يقول: «إنها حرب صليبية جديدة.. ما حدث لن يمر على الإرهابيين وأعوانهم ومن يأويهم فى بلاده».

ربما نسى أنه أول من أوى أمثال هؤلاء.. فلما اقتربت زوجته تسأله إن كان يريد شيئًا منها، أسقط الجريدة، كل الجرائد عن رأسه.

* * *

بدا وكأنه سقط فى هوة النوم اللذيذ، ولم ينتبه لخطوات الطبيب المعالج. قال الطبيب كلامًا كثيرًا بطريقته الواثقة المطمئنة.. ثم خرج حتى دون أن يغوص بأصابعه فى بطن المستكين أمامه.

أقسم لزوجته أنه لم ينم، كان يدبر أمرًا فى رأسه.. لم تفهم ولم تشأ أن تسأل. لكنه علق بعد فترة من غروب الرجل عن وجهه:

«لم أكن على ما يرام حتمًا.. كنت أفكر فى قصة أكتبها.. أود لو أستطيع».

* * *

-٥-

معذرة يا سيد اللذة

إليه انساب درب اللذة فانتشى، لم يصمت كعادته كلما قدمت الممرضة التى يجهل اسمها . أول ما جذبه فيها صوتها الذى يشى بحنية فى قلبها تكفى العالم كله!. وربما بسبب «المجال المغناطيسى»، أو «الأورا»، أو «المغناطيسية»، أو «الكهربية الحيوية»، أو «اللهب الروحانى»، أو «الإحساس الطليق»، «أشعة الحياة».. أيا ما يكون الاسم، يعرفونه منذ قديم الزمان: ذلك السيال المنطلق من أحدهم إلى آخر حاملا فكرة أو رغبة من العقل الواعى أو الباطنى. رسموه على هيئة مجال إشعاعى حول المرء، بيضاوى الشكل من الرأس حتى القدمين.

انتهت من وخزات الإبر، افتعل غضبة بسبب ذاك الممرض الصامت، وجده موضوعا مشتركا مناسبًا فى حضرة الزوجة. فوجئ أن شاركته اللعنات وزادت!. لم تعد فى عجلة من أمرها كعادتها فى مرات سابقة.

اعتذر لزوجته بعينيه صامتًا عن طول فترة تجاهلها، فوجئ أن سمعها تقول للممرضة «لم أجده مستعدًا للحديث مع أحد، كما أراه معك، اجلسى».. جذبت المقعد الوثير المكسو بالجلد الأبيض.. وكانت صادقة إلى حد الإصرار. نفذت صاحبة هالة السيال الجميل، ثم انشغلت طويلا بارتشاح دموى فى عضده، تتحسسه وتتفحصه. ولم تخرج من الغرفة قبل أن مسحت عنه ببلسم يدها وعينيها السوداوين وبالمرهم.

لم يشأ أن ينظر إلى عينى زوجته، أغمضهما، شرد قليلا.. قال فى نفسه: «أقسم أن مشاعر اللذة والألم متلازمان، بل وينشط أحدهما الآخر.. كلاهما خبرة حسية وشعورية.. أقسم أنك صادق يا صاحب كتاب «روضة المحبين» قلت إن اللذة تابعة للمحبة فى الكمال والنقصان.. وأن اللذة والألم ينشآن عن إدراك الملائم والمنافى، وأن الإدراك سبب لهما.»

* * *

مثلما أمضى بوذا سبعة أيام عارياً مع جلسته القرفصاء تحت شجرة التوت، وصبر حتى تلاشت الأعاصير والأمطار وصفا الجو.. فعرف سر الألم واللذة. انقضت الأيام السبعة الأولى له فى المستشفى، بدت له وكأن زمن الرحلة معهما، واستنفرت تلافيف رأسه بكل ما قرأ وسمع وعاش!

لم يختف الألم، نعم .. لكنه أقل وطأة، بدأ الألم شديدًا، شعر وكأن بطنه جوفاء، ثم أصبح أقل وطأة فبدا ألما باردًا لشعوره

برغبتـه فى الدفء، ثم هان قليلا مع الوخز بالمسكنات والمحاليل فأصبح ألما تشنجيًا، موصولا بمغص، ومازال على حال الألم الثقيل.. يأمل لو يهون!

تعلق بشفتى الطبيب، صاحب السيال الصوفى واللحية المهذبة بامتداد الشارب حتى أسفل الذقن ، وقد سأله حالا : «أى خطأ ارتكبته حتى تلبسنى الألم يا دكتور.. بحرمانى من الطعام والشراب، وبوخزاته وبشعورى بالعجز؟!!»

هانت بسمة مطمئنة من الطبيب الصوفى، وقال: «لم تخطئ ولا أبويك.. فقط لنرى فيك، ولترى فى نفسك.. أعمال الله وإرادته»

أزاح المريض حديثه إلى ما يريد، لعله يطمئن قليلا، قال: «هل أوضحت أشعة الباريوم على القولون جديدًا؟».. «ليس بالضبط، يجب أن نتابع البحث.. لاتقلق»

... «زهقت!!!»

لم ينتبه لغروب الطبيب، انتبه أكثر للذة كف ناعمة حنينة يعرفها، كانت تربت على كتفه!

ود لو يرد لها ما تفعله معه، بأن يشاركها ما فى رأسه: يقسمون «اللذة والألم» إلى ثلاثة أقسام .. القسم الجسمى وهو الطعام والشراب، والوهمى وهو المنصب والجاه والعقلى وهو الجمال وأصحاب العلم والفضيلة.. وقالوا إن العقلى أفضلهم ويبعث على السعادة والرضا، أما أنا فأقول: اللذة والألم الجسمى، نعمة من

الله ولايجب أن نقلل من متعتها وجمالها.. هأنذا محروما منها وأشعر بالحزن.

... بعد فترة صمت تابع لزوجته الصامتة: «وإن كنت أقدر اللذة والألم العقلى».

* * *

راودته رغبة أن يعيش قسم اللذة والألم العقلى.. مضطرًا!، أحد أصدقائه الأدباء اقترح عليه فكرة الانشغال عن حرمانه من الطعام والشراب بممارسة «الاسترخاء» و«التخيل» كما يفعل أهل «اليوجا». قبض على جفونه وذهب وحده.

لايدرى لماذا تذكر واقعة «الحفرة البرميلية» ؟!. عندما أطلقوا عليه دفعة من رشاش سريع الطلقات. كان فى طريقه إلى ملجأ مبيته الخاص لإحضار بعض الكتب لسلامة موسى، ورواية «آنا كارنينا» لتولستوى. هان عليه الرحيل بأوامر من قائد المستشفى الميدانى بعد اشتداد الحصار، ولم يهن أن يترك الكتب التى يعشقها.

لم يفكر طويلا فور إحساسه بالخطر، رشق جسده فى الحفرة القريبة، فوجئ بسقوطه. فوق كتف أحدهم، سمع صوتا مبحوحًا شحيحًا «ما تخافش يا خويا.. ما تخافش يا خويا».. استسلم لذراعي الجندى تجذبانه إلي أسفل، «وبكل طاقته حك هو جدار الحفرة بكتفيه وعجزية، فالحفرة لاتكفى إلا لأحدهما بالكاد. أخيرا نجحا، التصقا إلا من وجهيهما، فلما بحلق إلى وجه صاحب

الصـوت الشـحـيح الذى يدعـوه بعـدم الخـوف، عـرف كيف يكون للخوف وجه وملامح وقد كسته الأتربة؟!

تابع: «حـاولوا قـتلى قـبلك، اليـهـود يحـتلون المنطقـة المواجـهـة للمستشفى ، لاتخرج من هنا، أنا هنا منذ الصباح، قادم من كتيبة النقل المجاورة، تركوا سيناء كلها، واجدعنوا على الوحدات الإدارية غـرب القناة». فشل الرقيب الطبى فى إقناعه بالخروج من الحفرة والاحتماء بجماعة أفراد المستشفى، والتصرف معا. فشل، فتركه وحـده مـرشـوقًا فى الحفـرة وخرج، عندمـا عـاد أفـراد الوحـدة من جديد إلى موقعهم فى شهر يناير من السنة التالية، وبعد انسحاب الإسـرائيليـين، أسـرع وحـده إلى الحـفـرة.. لم يجـد الجندى الذى احتواه، لكنه لاحظ بعض العظام وجمجمة!!

بدا منتـبهًا تمامًا وقـد أفـرج جفـونه، يسـأل زوجـتـه: يحـتمل أن أكون قد قصـرت مع الجندى؟!، لم تفهم ولم يشـأ أن يبوح لها بسـر سؤاله.. ولم تعقب الزوجة.

* * *

يبدو أن الزوجة فضلت أن تدير الحديث بعيدًا عن موضع الألم الذى ألمَّ بزوجـهـا فـجـأة، قـالت بعـد أن ألقت بالجـريـدة بعـيـدا: «جددوا حبس يوسف عبدالرحمن.. الموضوع جد».. لوى شفتيه، فتابعت: «من أين واتته تلك الثقة والشجاعة ليقول: «سوف أتكلم وأقـول كل شـىء». راوده تسـاؤل لـم يخطـر على بـاله من قـبـل: «هل مـرضـى هذا بسبب التسمم من أثر المبيدات الزراعية السامة التى استوردها؟!»

لم تعقب.

يبدو أنها فضلت الانتقال إلى موضوع آخر، قالت: «متحدث رسمى مصرى يعلن أن مصر ملتزمة بالشرعية الدولية لتجنب استخدام القوة.. بينما يدعو «بوش» فرنسا وروسيا والصين المشاركة فى مواجهة الخطر العراقى!»

أشاح بوجهه لتتابع وحدها: «ربما من الأفضل أن نقرأ حظك اليوم ونرمى الجريدة»، فلما طال صمته، مالت نحو وجهه حتى شعر بسخونة بشرتها، تقول: «بدك فى شىء؟»

«فيك»!!

تبادلا قبلة طويلة.

* * *

-٦-

معذرة يا سيد الطعام

فضوله فاض وغلب كل شيء، اجتاز كل الحواجز، بارح حدود جسده المنهك، غاص بعيدًا يبحث عن مقهى الأصدقاء فى لقاء الثلاثاء الأسبوعى.. عن مكتبه الذى يقضى الساعات إلى جواره، ربما أكثر مما يمضى بجوار زوجته.. عن أبواب المقاهى والسينمات وقاعات الندوات .. عن بحر الإسكندرية الذى جاوره طوال أربع سنوات مضت.

فضوله اجتاز كل الحدود ليبحث عن طبق فول بالليمون والبصل وزيت الزيتون.. يبحث عن فنجان قهوة الصباح والمساء.. يبحث عن سيجارة يلتهمها.. يبحث عن روائح الشواء والقلى وحتى سلق اللحوم والأطعمة.

* * *

قال الإمام الرازى عن «البصل»:

«إذا خلل البصل قلت حرافته، وقوى المعدة.. والبصل المخلل فاتق للشهوة»...

«نصف كوب من عصير البصل مع كوب عسل، يغلى حتى يتبخر البصل وينعدم رائحته. تؤخذ جرعة منه بعد كل وجبة.. يستخدم للقوة التناسلية»

«أكل البصل مشويا بالفستق مع طلع النخل والعسل.. يقوى الباءة»..

«تطبخ شوربة البصل بنخاع العظام، تشرب كالمرق فى الغداء يوميًا، يقلل الإحساس بأى ألم» وقال ابن البيطار عن البصل:

«البصل فاتق لشهوة الطعام، ملطف، معطش، مليّن للبطن، إذا طبخ كان أشد إدرارًا للبول ويزيد الباءة إن أكل البصل مسلوقًا»...

.. وجدوا فى البصل فيتامينات وهرمونات جنسية مقوية للرجال. مادة «الكالوكنين» فيه تعمل عمل «الأنسولين» وتنظيم السكر في الدم. بالإضافة إلى «الكبريت» ومركباته التى تسبب إدماع العين، فضلا عن وجود بعض الخمائر والأنزيمات المنشطة للغدد.

قديمًا قال «هيرودوت»: «البصل هو الكرة الذهبية، عجبت للمصريين كيف يمرضون وعندهم البصل والليمون؟!»

وعن «الحبة السوداء » أو «حبة البركة» حدث ولاحرج .. وصفوها للذة وزيادة الشهوة ومواجهة الآلام.

«مغلى الحبة السوداء واستعملها مضمضة أو غرغرة يقلل آلام الأسنان واللثة والحنجرة»...

«حفنة من الحبة السوداء مع سبع بيضات يوميًا لمدة شهر، ويمكن إضافة ثلاثة فصوص ثوم بعدها.. يزيد الشهوة ويقلل الدهون فى الجسم.»...

«طحن الحبة السوداء مع «الحلبة» قدر كوب، ثم يضاف قدر من «العنبر» المحلل، يخلط فى إناء به عسل نحل.. وتؤكل كما المربى بخبز قمح يقوى الباءة»...

وفى كل الأحوال عند الضرورة على المرء اتباع الآداب التالية: دخول الحمام لقضاء الحاجة أولا.. يدعو الله قائلا: «اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى».

وعن الثوم.. «يهرس الثوم ويسوى فى زيت الزيتون على نار هادئة حتى يصفر لونه، يعبأ فى قارورة.. عند الضرورة يدهن به جذر الإحليل (العانة) بحركة دائرية، ولايغسل قبل ساعة.. فيزيد الباءة»...

«نصف فص من الثوم على مكان الألم فى الفم، يرفع ألم الأسنان، يوضع فى صيوان الأذن جهة الفك المؤلم يرفع ألمه»...

... الثوم غنى بالفوسفور والمواد الكبريتية والكالسيوم، محرض للشهية ويحرك جدار المعدة يحول دون تكون الدهون.. فيه شفاء من سبعين داء، وللتخلص من رائحته تؤكل تفاحة بعده أو ورق النعناع أو مستحلب القرنفل.

وقال «رفق الدين البغدادى» فى كتابه «الطب فى الكتاب والسنة» عن العسل:

«ابدأ يومك بعسل النحل، فهو ما قال فيه القرآن الكريم: «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس» (النحل ـ ٦٩).

* * *

غازلته الأطعمة واختزلت إلى روائح غامضة تشاغله عن غير قصد، تواتيه رائحة البصل كلما ضاقت به السبل!. منذ يوم أن أخبرته أمه أنه ولد، لم يبك كما المواليد، ولم يبك إلا بعد أن دسوا بصلة فى أنفه.

الرائحة الكريهة لأنفاس زميلة العمل لم يبررها إلا بعد أن علم أنها تتناول الثوم يوميا منذ عشرات السنين، فطلب منها أن تكف عن فعلتها.. الآن يشعر بالندم على فعلته!

الرائحة الهينة الملساء لحبيبته التى كانت، لم تبرح مناخيره. قادر هو على استحضارها وقتما شاء. فلما حضرت سألها: لماذا تموتين قبل الأوان؟! ولأنها قليلة الكلام، مطمئنة النفس.. ابتسمت صامتة وافتعلت انشغالها بشعرها الكستنائى الناعم، ثم ذهبت ولم تذهب رائحتها.

أما رائحة أمه التى ظن أنه نسيها، واتته، كان قد حفظها خلال فترة غيبوبتها الأخيرة، ما كانت تتقبل علاجا إلا بعد أن يجلس إلى جوارها، يملأ أنفه برائحة الأمونيا المنبعثة مع أنفاسها من جراء

الفشل الكلوى الذى نال منها - يسألها أن تقبل أوامر الأطباء، فتمد ذراعها وسط دهشة الجميع مستسلمة لشكشكات غير راغبة فيها.

فلما جاءته رائحة جده، وهو تحت إبطه يحميه بالمعطف الأسود الصوف، فى طريقهما إلى المدرسة الابتدائية، أيام الشتاء المطرة.. ظن أن الروائح كلها ما خلقت إلا لحمايته كلما ضاقت به الدنيا.. فتمنى لو يبكى .. لم يبك!

* * *

قال أحد الزوار أن روائح ومذاق الفاكهة والخضراوات ما عادت كما كانت، باتت مسخة حتى «الخيار» أصبح شائخًا بلا طعم فعقب أحدهم بأن أهل العراق يصنعون الخبز من نوى البلح بعد الحصار.. وساد الصمت حتى تابع ثالثهم: «بينما أمريكا تلقى الحبوب فى المحيط بما يكفى سكان إفريقيا شهورا»!!

علق الهامد على سريره: «الأسمدة الصناعية والمبيدات مع الجشع والجنون.. السبب فيما نشعر به من مرارة فى الحلق والقلب والعقل أيضًا»!

* * *

خلال زيارة تالية قال لهم: «لكن الألم نعمة يا جماعة!!».. رفع رأسه عن الوسادة متحديًا صمتهم، وتابع: فى زمن الحرب، ومع دخول الدبابات المعركة، تلك التى نقلوها فى جسر جوى من أمريكا حتى العريش.. زاد عدد المصابين، حتى امتلأت العنابر والممرات

حتى المدخل. فى التاسعة مساءً وقد ظننت أننى انتهيت من مهمتى، اكتشفت أحدهم صامتًا فوق المحفة.. لايتألم!، سألته عما به، أشار إلى بطنه، رفعت الرباط الصوفى عن بطنه، وجدتها مبقورة، والأمعاء حولها!».. صاح يدعو كبير الجراحين، عنًفه لترك الرجل طوال تلك المدة، برر بقوله: «لم يكن يتألم .. أو على الأقل لم يقل.. آه!!».

اضطر الطبيب للضحك، ومنذ ذلك اليوم البعيد ما عاد يعبأ بأصحاب الصوت المرتفع، القادرين على التألم.. اعتنى أكثر بمن لايصرخ ولايقول «الآه»!!

* * *

-٧-

معذرة يا سيد الليل

الليل الذى يبدأ ثقيلاً يجىء غواية، يدعوه إلى المنفى، إلى الزمن الغائر فى شعر رأسه وقد بات مبرقشا، وفى شقوق هينة حول عينيه وزاويتى فمه، فقط لأنه عاش فى هذا الزمان عمرا، مرا.. لم يبق منه سوى فحيح النهاية.

* * *

ما كان يدرى أن حالة «الفواق» أو «الزغطة» التى تلبسته، مثيرة للقلق.. كلما اتصل به ابن عمته الطبيب من المدينة البعيدة يسأله عنها ولاينتظر ردًا، تأتيه الإجابة جلية، فالمسجى لا يستطيع متابعة جملة واحدة غير ممزقة بالزغطة.

ما استطاع كبح جماحها، افترسته وهو فى طريقه إلى المستشفى.. عفوا تتقلص أحشاؤه ويعلو صدره قليلا.. مع صوت شهقة خبيثة. عامل مصعد المستشفى، الصبى العفريت انتابته ضحكة طويلة، لم يخفها مع نظرته الدهشة.

كـان إيقـاعـهـا مع خطواته بين ردهات الدور التـاسع.. أمـرًا مضـجرا. بات يتبعها لحظة بلحظة وكأنها المرض. ما كانت كذلك، بل لعبة يلعبها مع أصدقائه الصغار، حتى عندما ينصحه نبيه منهم بشرب جرعة ماء.. يرفض ، سعيدًا بإيقاعها المنتظم، وربما لأنها شدت انتباه الجميع من حوله!

* * *

فى الليل دخل المستـشفى ، وهو لايدرى سـر قلق الطبـيب الذى استقبله!

فى الليل شاهد تلك الفتاة النضرة الممتلئة ثقة وحيوية مصادفة، وما كان يدرى أنها قدره وهو قدرها.. فتزوجها!

فى الليل قادته الطائرة للمـرة الأولى إلى البـلاد البـعيدة، وفـيه تنقل بين الفنادق هناك..

فى الليل أدى مناسك العمـرة، فـلا يطيق أحدهم أداء مناسكها مع حرارة شهر أغسطس نهارًا..

في الليل عـاش الخنادق والخـيـام أيام الحـرب التي تـراوده عن نفسها دوماً!

فى الليل ماتت أمه ثم حبيبته التى لم يلق النظرة الأخيرة عليها، لأنه رفض اللقـاء الأخـيـر.. ثم مات والده، ومع ذلك مـازال يسـأل، ولايجد إجابة؟: لماذا يموت الناس ليلا؟؟!

فى الليل كثيرًا ما يشعر بالجوع.. للطعام والضحك والكتابة واللذة. جعله المشتهى.. أكثر كثيرًا من نهار أيامه!

وكان يونس فى بطن الحوت، يعيش ليلا دائمًا!

الآن فى المستشفى أصبح الليل عنده منفى كل شىء .. ما عاد شمسًا وضاءة تكشف الأسرار كلها!

* * *

تعلو أصوات الأنين من الغرفة المجاورة لغرفته، كأن صاحبها الأواه يرتل تراتيله كلها، ولا يدرى لماذا تبدو هكذا جلية ليلا؟

فى كل مرة يسأل فيها أحد طاقم التمريض الذى يقتحم عليه ليلته لرفع عبوة المحاليل واستبدالها بأخرى .. يسأل: بماذا يعانى هذا المسكين؟

يجىء الرد فى الظلمة: «خليك فى حالك!»

فيما بعد فسر الرد الجاهز: «بسبب الإرهاق» ، فأيقن أنهم يسخرون منه، أو هكذا اعتقد.

ليل الغرفة ٩٠٨ غير أى ليل...

كان يرى شبحاً ضخماً من زجاج النافذة الموصدة، فيبدو كشاهد مقبرة. عرف أنه مبنى يعلو المستشفى الضخم الذى يقيم فيه، ومع ذلك تسكنه الأشباح. تملكه شركة توظيف أموال أعلنت رفضها رد أموال المودعين!

فضل ألا يرمى بصره فى الظلمة إلى النافذة، ولا الانشغال بالظلال التى يراها خاطفة مسرعة، هاله أن تكون لطيور قتيلة تسقط.

لولا الإحساس بالشفقة على ما بذلته زوجته من جهد طوال اليوم، لصاح بأعلى صوته لأن تنهض من نومها لتتحدث إليه أو حتى تبقى صامتة، كانت تغط مع أنفاسها العميقة الرتيبة فى هدوء لايمثل قدر لهفتها واضطرابها لو همس باسمها منادياً: «يا عزة..» تبدو وكأنها ما كانت نائمة ولا حتى مع الكرى.!

كانت الغرفة منسقة ونظيفة، لكنها مفتوحة السقف والجدران، مستباحة لريح الليل وهواجسه، ولضوء القمر الخبيث، ولأحذية الممرض الذى دخل حالا حاملا حقنة شرجية يقول:

«اتصل الدكتور عمرو الآن، وطلب عمل أكثر من حقنة شرجية حتى الصباح.. سوف يجرون لك منظارًا على القولون فورا»

بالبكاء العنيد كان يقاوم أمه يوم رشقت مبسم الحقنة الشرجية فى مؤخرته صغيرًا، بالنشاط والهمة كان يمرض أبيه يوم رشق نفس المبسم فيه قبل رحيله بناء على نصيحة الطبيب.

بالضحك الشقى كان يمزح مع أصدقائه الصغار ويهددهم بوضع الحقنة الشرجية كلها فى مؤخرتهم إن تشاجروا معه!

الآن يبدو مستسلماً لرحيل الأيام التى كانت، ولمهمة الممرض فى عمله.

* * *

أمضى الليل على يقين أنه ليل بخيل وإن طال، راودته أشباح أمواته كلهم.. أمواته فقط. صديق طفولته الأولى الذى ذبحته سيارة مسرعة، صديقه الشهيد الذى اختارته شظية مكتوب عليها اسمه، بينما كانا متجاورين .. وأناس غيرهما يتجددون كل ليلة. فقال فى نفسه.. ربما بسبب المبيدات السامة أو بسبب الحرب على العراق التى لم تبدأ بعد!

* * *

مع شقشقة الفجر ، انتهت مهمة الممرض وهو يردد فى نفسه: «أنا لم أزل طفلا، يجب أن أخبئ أحزانى تحت جلدى!!»

* * *

-٨-

معذرة يا سيد البشر

بين ارتياد الألم واللذة وانتظار الرضا، كابد الخطو. زاده الشوق اشتياقا.. للحب الذى يعرفه العاشقون، للتحمل الذى أثبت ضعف جسده، للتأمل الذى جعله يرى ما خلف جدران الغرفة، وما تحت جلده وجمجمته، بل ويكشف ما فى نفسه المسجونة فى جسده.

ما عاد يملك غير الرجاء...

* * *

فى صباح اليوم الثانى عشر ، أصبح كل شىء حوله غير محتمل . «المرتبة» التى ينام عليها غاصت، «الكوميدين» امتلأت بأشياء تخصه ولاتخصه، الخراطيم الموصولة بذراعه وبطنه، السكون الممزق بآهات أحدهم فى الغرفة المجاورة، بياض لون الحوائط وملابس المرضين.

كل شيء من حوله هادئ إلا رأسه، نفر جسده فجأة بعصبية. رسم جسده زاوية قائمة. فأدرك فى تلك اللحظة الجهنمية أنه كان شغوفًا بجسده إلى حد الجنون.. ولم يسأل نفسه: لماذا؟

لماذا كل شيء.. أن يكون جسده طهورًا ومدنسًا، وربما مقدسًا أيضا.. يراه أزليا وهو موقن بالزوال؟!. كان جسده كل ما يملك فى هذا الكون.. يملكه بحق، ومساحة وجوده المتحقق. لا ينسى يوم ضبطته أمه فى ركن الغرفة منطويًا على نفسه، يكتشف سيف الذكورة فيه، وإن ابتسمت لم ينس قدر الورطة، لم يستطع تفسير وقفته نصف عار أمام المرآة، حتى الآن مازال يشعر بالورطة!

حرضه جسده على اكتشاف سر القبلة والرائحة واللمسة وأطراف اللذة كلها، جعله فى مواجهة المهالك ، ويرى فى الألم لحظة قاسية ومقدسة معًا!

جسده المحرض جعله منتبهًا حتى الآن لأن يتذكر النهاية، كل النهايات حتى سديم الأكوان البعيدة.

ما عاد يدرى.. هل يعيش الآن لحظة انتظار النهاية ، لأنه أدرك حدود جسده وإمكاناته؟ أم لحظة فتوح لم يقرأ عنها من قبل.. يعيشها ويقبض عليها.

* * *

فور أن اقتحمه «محمود» كعادته، سأله إن كان معه كتاب الكلمات المتقاطعة الذى يحمله دومًا فى بنطاله. وقد أخبره عن

أسرار تلك اللعبة.. كيف أن جريدة «الأهرام» تكرر لعبتها ظنا منها أن أمثال محمود غير منتبهين؟ وأن الجرائد الأخرى أكثر حرصًا وتطويرًا لها. حدثه طويلا عنها وقد شاعت بعد معارك ٦٧ ولايدرى لماذا؟

كان دومًا يرفض اللعبة ظنًا منه أنها لاتكسب المرء ثقافة حقيقية، وتأكد ظنه بمهارة المرض فى حلها خلال دقائق، والسر فى ذلك تكرار المعلومات. الآن يسعى لأن يمارس اللعبة، ولايدرى للبحث عن مثير آخر غير مرضه أم رغبة منه فى التخلص من جبرية الحياة التى يعيشها منذ أن اعتلى سريره هذا؟!

لم يهتم محمود بما طلبه منه المريض، جالس سريره. اهتم أكثر بما لاحظه فورًا. سقوط خرطوم الرايل!!

انتبهت الزوجة وتابعت أوامر الدكتور عمرو فورًا.. أن يتناول المريض فنجانين أو ثلاثة من الينسون أو النعناع، ولاحقت قسم التغذية لتنفيذ المطلوب. فلما شربها كلها ولم يتقيأ .. كانت البشرى التى زفتها لكل زوار النهار وأول الليل!

* * *

أسرع إليه الطبيب.. فحصه مليًا، وكرر أسئلته القديمة كلها.. لوى شفتيه وخرج صامتًا. تابعت الزوجة «الرقى» كعادتها وشقيقتاه كل صباح ومساء. وضعت يدها على بطنه (موضع الألم) تمتمت بكلمات لم تبين له . هذا الصباح سألها: «ماذا ترتلين؟»

ردت وهى تتابع مهمتها بهمة وإخلاص : « بسم الله الرحمن الرحيم ثلاث مرات.. ثم أقول أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات، وأتابع الصمدية والمعوذتين قدر ما أستطيع».

* * *

لم تكن المرة الأخيرة يعاود فيها التقاط صور جديدة بالأشعة على البطن (نائم . واقف)، مازال الطبيب يبحث عن شىء فى رأسه.

صادق أغلب العاملين بقسم الأشعة، إلا ذاك الطبيب صاحب الطلعة الوقورة الذى مازال يتصيده.. فى كل مرة يطل من برواز الباب الموارب ثم يخرج، ويتقدم نحوه فى هدوء.. يربت على كتفه ويرمى السلام. إلا تلك المرة، سأله: «رجعت الينسون، تقيأت؟!». فلما سمع كلمات النفى وقد استرسل المريض فى وصف ما تناوله.. ابتسم بسمة عريضة، ربت على كتفه للمرة الثانية، ثم ذهب صامتًا. كانت بسمته هذه المرة وبعد أربعة عشر يومًا غير كل المرات السابقة.

عاد وأخبر زوجته بما كان منذ قليل، ابتسمت قائلة: «خيرًا» . لم تنتظر لتسمع منه أكثر ، لاحقته ضاحكة، ثم صاحت قائلة: «نائب الكنيست الإسرائيلى «محمد بركة» طردوه لأنه قال إن الفلسطينيين ليسوا نعاجًا فى مزرعة «شارون»». ابتسم هو أيضا!

سألته إن كان يريد منها أمرًا، لم يعلق، تابعت وحدها وهى تقلب صفحة الجريدة قائلة: «قبضوا على اثنين من الزنوج

الأمريكان، يحتمل أنهما وراء القتل فى واشنطن. الأول شاب فى العشرين اسمه «روهان مالفو» مع زوج أمه وانتبه جيدًا لاسمه «جون.. دانيال.. محمد»!!

ولم تسمع تعليقًا، تابعت بأنهم جددوا حبس «يوسف عبدالرحمن» أربعين يوما. ثم شغلهما «محمود» أكثر. جاء وبين أصابعه ورقة كراسة مكتوبًا عليها.. «محمود حماد.. (نجم التليفزيون والسينما مستقبلا) مع أرقام تليفونات المستشفى!

«هل تعنى أنك تغنى، ولك حنجرة عبدالحليم حافظ؟!»

«بل ظهرت على شاشة التليفزيون، وكل من فى المستشفى يعرفون، ويعرفون أن مثلى الأعلى هو الفنان شعبان عبدالرحيم»

«........»

«تسمعنى؟»

«أسمعك»!!

كان صوته جميلا بحق أو هكذا استقبلته أذن المريض الذى رفض العودة إلى السرير وبقى جالسا على المقعد الجلدى الأبيض.

* * *

شد انتباهه للمرة الأولى، ذاك الشيف صاحب التوك أمامه على شاشة التلفاز، يرفض تلك البرامج مدعيًا بأنها تسخر من عقول وحافظة نقود المشاهدين.. كان يعتقد ذلك. الآن طلب ورقة وقلمًا، كتب طريقة إعداد طبق للحلوى لم يذقه من قبل.

بودرة كريم شانتيه، مع جيليه، وعصير فراولة .. معًا فى الخلاط الكهربائى. يصب الخليط فى كئوس زجاجية، يوضع على سطح كل كأس حبات من الفراولة والكريز، وشرائح من الكيوى والشيكولاتة.. ثم توضع فى الثلاجة لمدة ساعة!

فلما انتهى من انهماكه، سألته زوجته عن « البصارة» التى زرعها خياله من قبل.. ابتسم وأخبرها بأنها ستصنعها وهى إلى جواره فى المطبخ فور عودتهما!!. لم يشأ أن يخبرها بأنه بدأ يعانى من الجوع أكثر كثيرًا من الأيام الأربعة عشر الماضية.. وأن ما تناوله من ينسون ونعناع وجيلى لم يجب عن أسئلة أمعائه الخاوية.

* * *

لم تتنازل شقيقتاه وزوجته عن ممارسة «الرقى» فوق موطن ألمه الذى قل كثيرًا. فى كل مرة.. يغلق عينيه يغمره إحساس غريب بالتلاشى والاستسلام. لاينتبه بما يرتلونه، ومع ذلك فقد القدرة على التخيل، كما حاول اصطياد ذلك الطائر الأسطورى الذى يحمله عنوة إلى غرفة نومه ، مكتبه، أصدقائه الأدباء، بحر الإسكندرية ..إلى الدنيا الذى يتمنى أن يعرفها، كأنه ما عرفها من قبل.

فلما رفعت التى تمارس مهامها.. يدها لم يفرج جفونه، ربما لإغرائها أن تتابع، وربما لعدم رغبته فى رؤية الغرفة.

صاحوا باسمه لاستقبال الدكتور عمرو الذى وجده مبتسما مطمئنًا، وما أن هم لسؤاله.. اعترض الطبيب: «لاتسألنى عن سبب

الحالة التى انتابتك لأسبوعين، ولا كيف شفيت منها.. أظن أنها نوع من الابتلاء؟!»

استسلم الذى رفض البقاء نائمًا على السرير، مفضلا الحديث مع الطبيب من فوق المقعد الأبيض.. ولم يسأل حتى انقضت فترة.

تابع الطبيب: «ربما بسبب ما رأيت الآن، ممارسة الرقى فوق موطن الألم ، هون اللّه عليك.. وأزاح السبب عنك....

لتزداد حيرتى فى حالتك...

ولتطمئن أنت...

وهذا يكفينى ويكفيك.. الآن على الأقل»

فابتسم الذى كان مريضا، وقال: «وأنا أيضا يكفينى.. ولكن إلى الأبد»

* * *

القسم الثانى

قصص أخرى

فى الحرب والعتمة نسمع ونرى!

الحرب ألبستنى صفات لم أكن أعلم معناها....

تردد المذيعة ذات الصوت الرائق: «وهذه الأغنية مهداه إلى أبطالنا الشجعان على الجبهة». ولأننى ضمن أفراد جبهة السويس، فهى تخاطبنى حتمًا.. إنها الشجاعة إذًا!

يأمرنا الضابط الشاب العفى بأن نهيل الرمال نسد بها عين الشمس، أعنى تلك الحفر المنتشرة فى صحراء الوحدة يعود ويأمرنا بإعادتها وتجريف الحفر نفسها ثانية، فتحاصرنا هياكل لاتعد من الأهرامات الرملية يسعد لفعلتنا الغامضة، يخبرنا فى عزة واعتزاز: «فتوة، وقوة.. يا شباب».

يبدو أنه يصفنا بالأقوياء!

الشاويش «عيسى» يبعثرنا على أرض الطابور صائحًا: «انتشروا..» يعود ويصرخ فجأة: «انتباه.. اصطفاف». لحظات ويتابع:«سرية.. عد» نبدأ، تلتوى أعناق ألفاظ الأرقام، جيلا بعد جيل ينطقونها هكذا: «حد.. تنين. تلات....» يردد فرحًا: «سرية منضبطة منظمة». أنتشى بدورى لكونى منظما!

فى السنة التالية سرحونى من الجندية، استلمت عملى بإحدى القرى.. قتلت رئيسى فى العمل. لم أعترف بجريمتى. أقسمت أن ما تم وكان .. محض صدفة. صوبت نحوه مسدسًا قديمًا، وجدناه عفوا تحت ظل شجرة عجفاء عجوز شامخة، كان ملقيًا بإهمال، كسته الأعشاب الذابلة، والطحالب، فبدا وكأنه جذر متمرد من جذور الشجرة.

لأننى المحنك فى معرفة هيئات الأسلحة التقطته عينى، بحلقت صامتًا، دهشاً أشرت بسبابتى، الملعون رئيسى هذا، اندفع قبلى، كعادته فى اختلاس مستحقاتى فى العمل بعد أن ينسب جهدى وإنجازى إلى نفسه.

أؤكد.. أنا الذى تعرف على المسدس المطمور فى الطين، وهو الذى أمسك به سعيدًا، كطفل استلم لعبته على التو.

ولأننى الخبير فى مواجهة المواقف المفاجئة، لم أتململ قدر أنملة وهو يصوب مسدسه. مسدسى، إلى صدرى. بفرح يقول: «قف، سوف أضربك بالنار».

ضحكت على جهله بقواعد «التثبيت»، أخبرته بالسر.. أن يقول: «قف من أنت.. »، ثم أطلب منه أن ينطق كلمة السر. إن عرفها، أسأله أن يتقدم حتى أتعرف عليه، إن لم يعرفها .. حتى ولو كان رفيق الملجأ أو الخيمة، لن أرحمه. زاحفًا أدفعه أمامى حتى مقر الضابط النوبتجى. طوال الطريق أزجره، أنهره، أسبه، أنغزه، وأزيد من عصبيتى، ليس لشكوكى لكونه من الأعداء، كى أثبت للقائد أننى.. شجاع، قوى، ومنظم.

الآن أؤكد أن تجربتى الطويلة هناك، كشفت لى أننا قد نعيش أخطر المواقف دون أن ندريها فى حينها، وهو بالضبط ما انتابنى مع رئيسى .. ذاك الربعة القصير المحتقن الوجه. رأيته يستبدل صراخه بالصمت، ظنا منه أنه يعلن عناده وأنه حزم أمره، غير مبال، وإلا كيف تبرر سر قدرتى على البقاء ليلا - فى الظلمة - أنفذ العمليات الحربية، واحدة تلو الأخرى.

يموت بسببها من يموت، لكنها تحمل تقدير النجاح عندى، فقط لأننى عدت من جديد إلى مرقدى فى الملجأ أتنفس بانتظام.. حتى وإن وجدت المرقد جوارى خاويًا ، سويعات ويحتله جسد آخر .

الحق كنت أحزن، وسرعان ما أنسى. أى شيطان هذا الذى تلبسنى، فأبكى بحرارة على فقد رفيقى، ثم أعانق بحرارة رفيقًا آخر.. لا أعرفه.

ربما أهم ما خبرتنى به الأيام ولايبرح رأسى منذ تلك الفترة الماضية.. أن الضرورات أولى بالرعاية. لا أدرى لماذا استفزتنى تسريحة شعر رأس رئيسى للمرة الأولى أنتبه إليه.. شعر رأسه الأسود الطويل الناعم، وسوالفه الغزيرة الطويلة.. حتى خلته جنديًا من أهل الإغريق.

ولأننى أمضيت سنوات شبابى مع الحرب، حبًا فى أهلى، وكرهًا فى كل معتد أثيم. تفحصته مليًا، أراه على هيئة لا أحبها، كأنه من كوكب آخر. يرتدى البنطلون المحزق، والقميص المشجر، والحذاء الذى أعجبنى. قلت فى نفسى.. إذا كان الحذاء إيطالى الصنع، فلا تسأل عن بقية التفاصيل.

على كل حال، أثناء العمليات الحربية وأثناء التدريبات العسكرية. لم نكن نضحك، ولانبكى. أما لماذا ضحكت وبكيت فى لحظة واحدة فى مواجهة هذا الرجل. لأنه عندما ضغط على زناد المسدس، انزلق إصبعه من فرط اللزوجة، بفعل الرطوبة والطين والطحالب، ومع ذلك أدار وجهه بعيدًا ثم أغمض عينيه بشدة، كأنه سيطلق قنبلة ذرية، لم يطلق رصاصة، ولا حتى أطلق صوتًا.. فضحكت.

وما كان منى إلا تلقفت المسدس الذى انفرط من كفه، وقبل أن يصل إلى الأرض اللزجة حملته بين راحتى، لا أدرى كم من الوقت انقضى عندما مسحته جيدًا بمنديلى ، ثم حشرت منديلا آخر فى فوهته. وإن منعتنى غبشة المغربية من بيان إذا ما كانت الخزينة فارغة أم لا؟! وقد أفرجتها خارج جسم المسدس ومسحتها جيدا.. إلا أننى أحسنت تنظيفها.

ثم....

ثم سمعت صوتًا يشبه خروج طلقة رصاص، أتذكر أننى ضغطت على الزناد أكثر من مرة... وفى كل مرة أضحك.. ضحك هو نفسه لضحكاتى الهستيرية، ظل يقهقه حتى عجز، عجز عن الضحك لأنه سقط على الأرض مدرجًا فى دمائه.

فبكيت لأننى تأكدت من أن الصوت الذى سمعته تخلله صوت انطلاق طلقة حية أو حقيقية، لم تفسدها الرطوبة ولا الأتربة!!

لأن الحرب علمتنى الشجاعة.. ارتميت نحو صدره، أتسمع نبضات قلبه الهامد.. وعلمتنى القوة، فحملته بذراعى وحدى حتى

باب منزله.. وعلمتنى النظام، فاتصلت بشرطة النجدة، رويت على مسامع الضابط الشاب العفى بكل التفاصيل، رويتها كلها، ثم أقسمت له أننى لم أقتله، وأن هذا كل ما حدث!!

* * *

الـروح وماشجاهـا

روحى معلقة بتفاصيل الحكايات التى سردتها على مسامع زوجتى، فبدت وكأنها أذنان كبيرتان تتحركان فى اتجاه شفتى، كنت أقص على زملاء الكتيبة ونحن نعبر القناة، ونتابع باعتلاء الساتر الترابى.

بدت زوجتى أقل اهتمامًا، وأنا أقص عما جرى أثناء فترة «الثغرة» أراها تتعمد جلبة ما نجحت فى جذبى إليها، انتبهت، نظرت نحوها، رأيتها تكور جدائل شعرها المبلل بالمياه الدافئة.

بين الفينة والفينة ترمى أطراف شعرها الطويل ناحيتى فى آلية وسكينة لم ألمحها من قبل، فنلت من القطرات الندية نفحة طلية، لم تتمهل طويلا، فضلت أن تقتحمنى بملابسها الداخلية الوردية الشفافة، ولا أدرى لماذا فضلت أن يبقى جسدها مبللا؟.. لعلها كانت فى عجلة من أمرها، وقد حذرتها فيما مضى من عادتها القديمة فى البقاء طويلا مع جسدها وحدهما أمام المرآة.

تعمدت الانشغال بما أنجزته كتيبتى المشاة، وقد نجحنا فى رشق العلم المصرى فوق أعلى قمة هناك.، ولم أشر إلى ميتة

زميلنا "عبدالله شديد" ولا إلى ساق "سالم المسلمى" التى بترت، ولا حتى إلى الملازم "رفعت" الذى فقد بصره. لم أذكر شيئا منها البتة، فقد يتعكر صفو لقاء انتظرناه معًا أكثر من ثلاثة شهور كاملة.

فلما هممت برفع الخوذة الحديدية من فوق رأسى، تذكرت أننى لم أنزعها، ولم أبرح جلستى فوق طرف السرير منذ أن التقينا، ولا أستطيع أن أقدر كم من الوقت انقضى.

قد يبدو الأمر مستغربًا لمن يرانى وأنا أنهرها أن تعيد الخوذة إلى رأسى.. من كان معى أو شارك فى جعجعة المعارك سوف يعذرنى أكيد، وربما يهون من غضبة زوجتى التى كظمتها عنوة!.. الخوذة هى ستْرى وسر اطمئنانى، كنت أضعها تحت رأسى لأنام، وأحفظ فيها بولى لأشربه أثناء فترة الحصار، وأخبئ تحتها بعض كسرات الخبز الجافة لحين القحط وقد سد الأعداء طرق الإمداد والتموين إلينا على الضفة الشرقية للقناة.

تربعت على الأرض وحفظت قدمىَّ فى حجرها لتنزع "البيادة" الثقيلة عن قدمىَّ.. انطلقت الآه حادة، سريعة، وعن غير رغبة منى. رمقتنى متسائلة بعينيها اللامعتين، لم أستطع تجاهلها وأنا التقطها من عال وهى متكورة داخل غلالتها الشفافة اللامعة وقد التصقت بجسدها البض. لا أدرى ماذا كان يعلوها ويحيطها من كل جانب.. لأننى سمعت صوتًا ملائكيًا يقول: "سلامتك!!"

لم تكن البسمة التى ارتسمت على سحنتى تخص الحقيقة التى أرجو أن أخفيها، كانت بسمة مرتبكة هزيلة من جراء آلام غبية ألمت

بمفصلى القدمين من جراء قفزة مهرولة خاطئة وأنا أعتلى القارب المطاطى فى بداية العبور حتى كدت أغوص فى أعماق مياه القناة، لولا أن بعضهم تصرف بحكمة أكثر منى.. وبقيت تؤلمنى حتى الآن. تصرفت بحكمة وبسرعة هونت عليها الأمر كله.. تمتمت بكلمات أعنيها وقد لا تفهمها إلا زوجتى فى هذا العالم، فضحكت وضحكنا معا بعد أن بدت الطمأنينة فى سواد عينيها الواسعتين!

لم تربط الخلفة بيننا بولد أو بنت، وإن حرضتنا على اندغام جسدينا أكثر، ولطالما ساعدتنا الأيام والليالى.. إلا أيام الحرب. بنت واثقة من نفسها ومنى وهى تنهض بخفة من جلستها، تتعلق برقبتى وبشفتى لفترة طويلة. ثم فضلت أن تخلع عنى ملابسى العسكرية، علها تزيح عن أنفها رائحة العرق التى أظنها أقرب إلى رائحةالبول، طال انتظارها لأن أجيب على سؤالها، أعلنت أنها ستنفذ وحدها المهمة، بدت وكأنها تسمع جيران سكان الشارع الذى نقطنه، نهرتها أن تخفض من صوتها، بدت دهشة ولم تنطق، ولم يطل انتظارى وقد عادت وبين ذراعيها.. وعاء من البلاستيك والصابونة المغلفة بورقها الأزرق مع تلك المنشفة الجديدة وقطعة اللوف الطويلة!

لم تترك موضعًا من جسدى العارى إلا ودعكته.. توقفت فجأة مستفسرة عن تلك البقعة السوداء التى لاتعرفها من قبل فى جسدى، افتعلت البسمة، قلت:"كنا قد نجحنا فى اعتلاء الساتر الترابى دون أية خسائر تذكر سوى مفاصل القدمين، لكن رصاصة طائشة مكتوب عليها اسمى.. أصابتنى!"

علقت بعد برهة:

"لكننى الآن تمام ومثل الحصان..."

يبدو أن المزاح لم يعجبها، فلم تبتسم..!

أسرعت وشرحت لها كيف أننى نسيت ألمى فور أن هبطنا جميعا على الجانب الآخر من الساتر الترابى؟ وكيف كانت أجساد زملاء الكتيبة كلها ونسة لروحى وتحفزنى على متابعة المهمة لاقتحام الدشمة الحصينة للعدو؟!

رددت عفوًا:

"بينما كنا على حال اندفعنا، إذا بزميلنا حامل مدفع"طالق اللهب" يصوبه عفوا نحوى والضابط رفعت إلى جوارى، فاحترقت فى جزء من جسدى، وفقد الضابط بصره. كانت أصابتى أهون بدليل أننى استطعت أن أرفع رأسى من فوق الرمال لأسب جد أجداده، وأمه التى ولدته معتوهًا!".

تابعت هى مهمتها، حكت كل جسدى وأنا منتصبًا وسط الغرفة، فوق الطست الفارغ، يبدو أن أمرًا ما شغلها، فلم تعلق، حتى بعد أن تابعت بأن العسكرى لم يكن يقصدنا أكيد، لكنها الحرب القادرة على فعل كل شىء غير متوقع!.. وجدتها تلوى رقبتها إلى أعلى بعد جملتى الأخيرة، تشجعت وتابعت:

بدليل أن أصابه الذهول ونال منه الصمت، ولم يتح لنا فرصة لأن نسبه أكثر.. ابن الشياطين غفلنا وتجاهل سبابى ثم اندفع قبلنا

جميعا نحو فتحة المزغل موجها لسان اللهب إلى ذاك الرابض خلف المزغل حتى أسكته وتقدمنا كلنا خلفه، ثم تجاوزنا جثته المرشوقة بعشرات الرصاصات!!

تابعت حنكتها فى فنون الحب، راغبة فى المزيد عن حديث الحرب، وليست مصادفة أن تركتنى دون أن تجفف المياه الرائقة عن جسدى، ولا أن تترك لمبات نجفة الحجرة مضاءة على غير عادتها فى الحب معى. هالها ما عبرت عنه بالدهشة لأننى فقدت بريق شعر صدرى الذى ينافس صدور ممثلى السينما، ومن المساحات القاتمة بسبب حروق اللهب، حتى الوشم الأخضر بتعويذة الحسد بهتت!!

ذاك الجسد الذى ظننت يوما أنها تعرفه، وهى مغمضة العينين، لم يعد كما تعرف. وعبرت عن ذلك بجملة واحدة.

«ماذا فعلوا فيك فى الحرب؟»!

لم أعقب، اكتفيت بمتابعتها تدور من حولى، وإن تمنيت ألا أتابع ما كان وما حدث، طلبت منها أن تتحدث بلطف أكثر مما تفعل، فلوت شفتيها، وصلتنى معان لكلمات لم تنطق بها، لم أعهدها فيها من قبل!!

بوسعى أن أفعل ما أريد غصبا!!

لكننى لن أفعل!!

أدرت وجهى عنها، التحفت بالظلمة وقد ضغطت على زرار الإنارة، رشقت رأسى بين الوسادتين، ثم عاهدت نفسى مستقبلا ألا أمارس الحب معها أبدا إلا فى الظلمة!!

كأن شيئًا لم يحدث..
ولم يكن

تراه صامتا مقطبا ما بين حاجبيه، يتأمل مقدمة حذائه إذا جلس وموضع قدميه إذا سار، وسقف الحجرة إذا استلقى على قفاه.

أما وقد جلس أمامك وحدكما، فلا حيلة أمام صمته إلا أن تدعوه للغداء أو العشاء فى غير ميعاد تناولها، حتما سينهض معتذرًا عما بدر منه من إزعاج!

المشكلة إذا نجحت فى إسقاط حجاب الصمت. ثرثرته بغير حد ممدودة فى الزمان والمكان نحو سنوات بعيدة. كأن الزمن توقف بعد تلك الفترة، الطريف أنه حتما سيلحق كلماته بجملة لا يمل تكرارها: «عادى» كأن شيئًا لم يحدث، ولم يكن .. ثم يتابع تكرار حكايته القديمة والوحيدة، يقول...

لم يهنأ لى بال طوال فترة تجنيدى كنت مشغولا بالحرب وبحبيبتى .. على أرض الطابور، وفى الخنادق، وأثناء العمليات الحربية المحدودة. أنشغل بها أكثر، وأنا منزو وحدى فى قاع البئر.

لم يكن بئرًا، حفرة برميلية زرعتها بيدى ميزتها عن بقية حفر الوحدة، وشيدتها على مزاجى، كى تسعنى وأنا مقرفص داخلها، بحيث تلامس فخذاى جدران بطنى، وترتاح كرة رأسى أعلى ركبتى يخال لعينى أن الحفرة المقبرة بدلتها رحما، ثم أشرد.

الطلقات التى تصفر من فوقى، والدانات التى تدوى من حولى، لا أعيرها اهتمامًا. أعلم أن الفأر يرفض الأسر وهو داخل المصيدة، بينما يبقى ساكنا أسيراً لو التقط أنفاس قطة أمامه فى الضياع الواسعة والجبال الممتدة أجىء بحبيبتى أسألها وأسأل نفسى: لماذا غدرت بى؟!

كان يمكنها التصرف بكياسة وذكاء أفضل مما فعلت . لو أخبرتنى أنها ما عادت تحبنى لأننى ممل وسخيف، فما كنت أتحدث سوى عن المعارك والعمليات الحربية التى شاركت فيها، وقتلت أحدهم لا أعرفه.. وعن حياة الملجأ أو «قفص القرد» الذى يضمنى وخمسة من رفقاء الوحدة، أعيد على مسامعها النكات القبيحة التى أضحكتنا ولا تضحكها، وعن «الجراية» و«الطبخة السوداء» أو الخبز والباذنجان التى تكرهها، وعن موت رفيق وقد تمزق جسده إربا. لو أخبرتنى فى تلك الأيام بصراحة: أنت لا تتحدث عن الحب والعشق، أين أنت من تفاحتى؟ فلا تشهينى ولا أنا شهية، كما كل العشاق الكذابين. آه لو قالت.. كنت عاتبت غباء رأسى، وارتحت.

كنت أفضل لو قابلتنى غاضبة لأتفه الأسباب، ثم تتهمنى بسوء معاملتها.. أكيد كنت سأرد عليها، وأسبها: «يا مفترية»!!، ثم أفرغ لنفسى، وألعن فقرى وقلة حيلتى.. لأننى أكتفى بكيس الترمس

والفول المسلوق المملح ونحن خلف سور كورنيش النيل، بينما على بعد خطوات سور كازينو فخم ومريح.

كلما طالت أيام المعارك، اشتد أزيز الطائرات فوق رأسى، ودوى الدانات من حولى، فلم أعد أستطيع الإجابة على سؤال تلبسنى: من أى الجيشين سيأتى الموت؟ وزاد بقائى مع حبيبتى فى البئر، أقصد الحفرة.

ذات مرة، غلبتنى أحوال الحرب، فلم تجالسنى حبيبتى فى البئر، وعلى الرغم أننى أقسمت لها، وأخبرتها بكل التفاصيل.. أنها المرة الوحيدة التى نسيتك فيها، شغلتنى روحى المعرضة للقبض أكثر، اتهمتنى بأننى أنانى، ولم تحضر فى المرات التالية، حتى عندما ذهبت إلى مجلسنا خلف سور كورنيش النيل فى الإجازة الميدانية!

لم تكتف بما فعلت، عامدة متعمدة تهبط من السيارة الفارهة، أمامى وإلى جوارها أحدهم، يتجهان إلى الكازينو الفخم المريح، أيا من يكون.. حبيبها، خطيبها، عشيقها الداعر، لا تهمنى صفته!

وقفت منتبها فى صمت، لم تبد اهتمامًا، تابعت حديثها الذى لم أسمعه، دخلا الكازينو إذًا... كنت فى عجلة من أمرى، غدا آخر أيامى فى الجندية وسوف أنهى علاقتى بها بتسليم «مخلتى» القماش بكل العهدة.

وقف وسط رفقاء الوحدة الملاعين أمام «الزفتاوى» . لو كنت جربت الجندية. تقدر أننى أصفه لك بأنه أهم شخصية يمكن أن تقابلها فى حياتك. كما أنه بالفعل هكذا.. المهم. الجميع يصيحون

بأسمه يا زفتاوى جهزت كشوف الأسماء، يا أمباشى زفتاوى أجمع الناس، وأبدأ حالا، يا حضرة الصول زفتاوى أنا تحت أمرك، الآن تستطيع أن تفهم أن رؤساءه من الضباط والصولات يعملون باسمه،. والمسرحين من زملائى ينافقونه.

فلما جاء دورى، نهرنى: أين البطانية الصوفية يا عسكرى؟؟

بهدوء مبتسم أخبرته أننى فقدتها بسبب المعارك، وطول فترة تجنيدى، وأن الحرب هى السبب، لم يبتسم فتابعت بسرعة قبل أن يصدر حكمه، قلت: يكفى أنك لو وضعتها أمام عينيك، حتما سترى ما خلفها وضحكت ولكنه لم يضحك . أعطانى درسًا بليغا فى المسئولية العسكرية، ودلالة كلمة «عهدة» التى هى فى مقام الروح والجسد.. أحافظ عليها، ولا أهملها مهما كانت الأحداث.

زملائى الملاعين، شاركوه السب واللعنات، وافقوه على عسكريتى الخائبة، وإهمالى فى العهدة أثناء زمن الحرب. احترت، كل هذا بسبب تلك البطانية الصغيرة الصوفية البالية، لم أتابع ما قيل وما حدث. لكننى متأكد الآن أن الشاويش أو حضرة الصول «زفتاوى» دخل إلى حجرة الضابط ولم يخرج.. كأن شيئًا لم يحدث، كأن شيئا لم يكن!!

أما وقد انتهى الصامت من ثرثرته فجأة، لا تجد حافزًا لأن تسأله.. إذا ما كان سلم مخلته أم لا؟ولا حيلة أمامك لأن تجعله يعاود الحديث، وقد عاد إلى صمته، وتأمله لحذائه. لكن حتمًا ستسمعه يقول: عادى.. كأن شيئًا لم يحدث، ولم يكن؟!

الحالم حلماً لا يعرف تفسيره

لن تخطئه لو رأيته للمرة الثانية، يكفى أن تراه للمرة الأولى .. يسير الهرولة بخطواته القصيرة العرجاء، على قصر قامته ونحافته، منتفخ الصدر، متسع العينين، دهشا، وإلا لماذا تلك الانفراجة بين شفتيه؟!

لو لم تتح لك فرصة رؤيته فى الشارع بسبب الازدحام ، حتما لن تنساه لو قابلته عند أحد جيران الحى، يردد البسملة والدعاء لك بالصحة والعافية وطول العمر. يبدو فى حضرتك أهم منك ومن مضيفك، ببساطة لأنه لم يحضر للمسامرة وتبادل أطراف الحديث حول شئون الحرب وأفاعيل الساسة، موجود هنا كى يطبب مضيفك، الذى حتمًا سيهملك حتى ينتهى الرجل من مهامه.

أما وقد صادفته ورأيته، لن يتردد لسانك أمامه ستنطق فورا: أهلا عم خلف». الرجل غير منتبه تمامًا لاسمك ورسمك، لكنه حتما سيرد التحية بأحسن منها. لن يتوقف عن عمله، فهو فى عجلة من أمره، مرضى البول السكرى فى انتظاره قبل تناول

الوجبات، وكل سيدات الحى الحوامل كذلك، أضف إلى كل هؤلاء شباب ورجالات الحى يعرفونه جيدًا يدعمون رجولتهم بحقنة من أدوية شد العصب.

يعمل العم «خلف» بأطراف مهنة التمريض، فهو ليس ممرضًا، لم يدرسها ولم يشتغل بها فى أى مكان . لا .. لا .. ، إنه فقط يجيد «ضرب الحقن» ولا شىء غير ذلك.

أهل الحى لهم رأى آخر، جعلوه فى مكانة أعلى من طبيبهم، فلا دواء ولا حقن يكتبها الطبيب يتناولونها .. إلا بعد موافقته. وهو بتواضع جم لا يعترض أبدًا، يعلم أنه لو أشار بإيماءة امتعاض دهشة أو مترددة حتما سيمتنع المرضى عن تناول الدواء؟

كما يعلم أنه ليس مسئولا عن مكانته فى قلوب الناس، على يقين أن دعاء أمه طوال فترة مرضها هو السبب وبسبب مرضها تعلم ضرب الحقن ضمن محاولة رعايتها وتوفيرًا للنفقات سر الأسرار فيما وصل إليه، بسبب دعاية أمه له لزائريها ، ولأنه استبدل عمله كصبى صغير بمحل البقالة بناصية الشارع إلى مهنة حقن الحقن. خلال تلك الفترة. فترة السبعينيات من القرن الماضى كانت جماعات من الشباب المسرحين من الجيش بعد الحرب، وكذا أصحاب المهن والحرف الصغيرة، وأيضا صغار التجار يهاجرون إلى إحدى دول الخليج تحت وطأة حلم يرجون تحقيقه.. حلم بحياة جديدة، وربما ببعض الثراء، وقد تكون لرغبة البعض العيش بعيدا عن المعاناة التى طالت منذ عام سبعة وستين.

لا تدهش أن نال هذا الرجل القصير المكير، كل ما ناله بسبب شكشكات الإبر! لأنه ببساطة نجح فى وخز إبر الحقن بلا ألم، ونال لقب صاحب اليد الخفيفة.

لا تتسرع وتحسبه لصًا نال لقب اللصوص، فهو ليس «هجاما» يقفز أسطح المنازل، ولا «ملقاطا» يلتقط حافظة النقود فى عز الظهر، ولا «هباشا». ولا أية درجة من درجات اللصوص.

كانت تجربتى الأولى معه مدهشة بل ورائعة. فى ذلك اليوم قررت أن أتلصص على جمجمة رأسه وأغزو أمفوخه. وددت لو أحطم حاجز الألفة الغامض الذى شيده حول نفسه، عامدا أو عن غير عمد.. إنه نمط غامض من الناس، لا تستطيع إلا أن تحبه، ولا تستطيع أن تطرح السؤال: لماذا لا نكره هذا الرجل؟ من الطبيعى أن تكرهه، لأنه مرتبط بالأمراض والعلل؟

فور أن دخل على، تفحص الأمبول، هزهزه ، قال: «زيتى» فتح علبته المعدنية الصغيرة السوداء الكالحة من غير صدأ، عبث وأخرج «إبرة» برقم ما، وأمرنى بغلى الحقنة الزجاجية والإبرة..

«ياه.. هل مازلت تستخدم تلك الحقن الزجاجية أحضرت لك حقنة بلاستيكية ترميها فور استخدامها؟. لم يبد اعتراضًا ولا قبولا، فقد ظل ممدود الذراع، وبين أطراف أصابعه الحقنة، مبتسمًا!!

فى ذلك اليوم شاركت الجميع ياله من رجل ماهر. الجديد، وما أسعدنى حقًا، أننى اكتشفت السر، لأنه يستخدم تلك الحقن القديمة، ولكل نوع من سوائل الأمبولات مقاس من الإبر مختلف

عن غيره.. فلما واجهته بما اكتشفت، ابتسم كعادته لم يرفض ولم يقبل.. كما أنه لم يصمت، قال: «كله من عند ربنا». فأضاف معلومة جديدة إلى اكتشافى. أن رأس هذا الرجل خالية من أحلام المستقبل، رجل كل أحلامه إلى الآخرة.

طالت فترة لقائنا الأسبوعى، أتذكر أن الطبيب المعالج يوم أن قرر علاجى أسبوعيًا بتلك الحقن، لشد العصب، نظر نحوى من تحت نظارته الطبية الصغيرة، وقد علقها فى منتصف أنفه، قال: مضطر أنت لحقنة كل أسبوع «لم أتململ»، غير مكترث بشكشكات إبر الحقن، عندى العم « خلف». يبدو أن الطبيب لم يفهم، ظل معلقًا بناظريه نحوى فى صمت بسرعة أدرت الحديث نحو الحلم الذى لا يبرح رأسى كل ليلة. انشغل عنى، ولأننى أطلت الحديث، أمرنى بالذهاب إلى الطبيب النفسى.

لا أدرى لماذا وضعت ثقتى كلها فى العم «خلف» مثل كل سكان الحى على كل حال، لم أعد أتخابث كى أصل إلى تلافيف مخه..؟؟ وكانت تلك هى الخطوة الأولى.

أما الخطوة الثانية، سألته وبإلحاح أن يفسر لى الحلم الذى لايبرح رأسى، وأن يعطنى شيئا من خبيئته فى العلبة المعدنية السوداء الكالحة من غير صدأ..

بدأ بالبحلقة فى سماء الغرفة، تابعًا بالعبث المنشود فى علبته فجأة أمرنى بالصمت، يدهشنى تصرفه، ما عاد «خلف» الذى أعرف .. النحيف القصير المكير، دقيق الملامح إلا من أنفه الكبير،

لأول مرة اكتشف هذا الأنف. وقد خلصت إلى نتيجة، ربما تصدق فى المستقبل.. ربما هذا الأنف سبب لأن نتذكره ولا ننساه أبدا!!

ليست خطواته القصيرة العرجاء ولا صمته المريب، ولا ثرثرته التى تخصه وحده، ولا قربه الشديد إلى أنفسنا حتى أننا لا نتمكن من رؤيته جيدًا، أعنى معرفته جيدًا.

عدت وتساءلت بينى وبين نفسى، ربما السر فى الناس أنفسهم، لأن الناس لا تحب الألم.. أعجبتنى الفكرة وتفرغت أتأملها منتشيا بأفكارى.

فلما صمت، ثرثر هو، لم أستطع أن أوقفه. دهشت، الرجل يتحدث عن نفسه كما الناس كلها، بل وقادر على جذب انتباهى، على الرغم أنه لم يحدثنى عن حلمى، اكتفى بالكلام عن حلمه هو ، حلمه الذى يتكرر كل ليلة، ولا يبرح رأسه فى الصباح ، ثم سألنى أن أفسره له!!!

أوامــر

عفوا ترقرقت دمعة، تذكر نبوءه العجوز السقيمة المملة: «سوف تموت على عودك يا ولد يا حسنى». «أم السعد» صاحبة البشرى هى التى ماتت فى ليلتها! مزقها القطار إربا عند مزلقان البلدة. ومنذ ذلك اليوم البعيد، يقص حكايتها معه ساخرًا، فى صباه وقد أصبح رجلا كهلا. يقص ليضحك ويضحك من يسمعه : الملعونة لم تتنبأ بموتها، ولا بميتتها.

اليوم فقط شعر بهزيمته أمام شبحها الذى لم يبرح طرقات حوارى البلدة ولا رءوس أهلها، تمنى لو لم تكن العرافة قابلته، لو لم يكن من سكان البلدة كلها، تذكر يوم أن قابلته عفوا فى السوق، ولأنها من أهل الخير، لها عادة قراءة الطالع لبعض الأنفار صدقة ورحمة على موتاها.. وهو بالضبط تبريرها له وهى تأمره أن «يوشوش» الودع.

يتذكر جيدًا أنه لم يتمن أمنية، ولم يفكر فى أمر، حتى لم يدع الله أن يحقق له حلمــا. ويعلم أنه ثأثأ وبكبك وأخرج أصواتا لاتوصف بكلمة فى العربية وفى كل لغات العالم.. ثم أعطاها الودع

وطلب منها أن تزف البشرى، فأخبرته بثقة الواثق بما أخبرته وفضلت أن تكتفى، أزاحت الفرشة، وكورتها فى صمت، اندفعت إلى حيث لا يدرى، لم تترك له فرصة لأن يفهم.

عفوًا أجبروه على تحرير استمارة باسمه وممهورة بتوقيعه الذى هو برسم اسمه، بلا تبديل أو تغيير. وكثيرًا ما يعلق الزملاء المحنكون فى الوظائف الميرى، أمثال أمين العهدة ومدير الخزينة: «أنت إنسان برىء بلا مثيل. واضح وصريح، حتى فى توقيعك» . لم يفهم، وإن حاول البعض تفسيرها له، لم يفهم.

عرف إنها استمارة طلب الإحالة إلى المعاش المبكر. لا شىء يهم، فقد أمره السيد المدير العام أن يملأها وقد فعل، وهو بالضبط رده وتعليقه على بعض الزملاء سلالة نمرود الذين رفضوا تحرير الاستمارة.. تمردًا على الأوامر غير المعلنة، وغير الواضحة . بينما رئيس العمل الكبير يعلن ويصيح أن تحرير الاستمارات لا يكون إلا بمحض إرادة العامل، ثم يدس بين الجميع من يروج بزهق أرواح من يرفض!

كل ما شغله من بعد أن استلم عدة آلاف من الجنيهات - وهو ما لم يره، مجرد الرؤية من قبل. كيف إذًا وهو يحملها فى كيس قماشى خاص، كلف زوجته بصنعه كى يحفظه حول بطنه، ويصل بالمبلغ كاملا سليمًا إلى زوجته، وقد نثر الأوراق المالية كلها فوق السرير! مع ذلك كله لمح رجل الأمن يحكم إغلاق الباب فور عبوره عتبتها، يبدو أنه آخر من غادر الشركة.

عفوًا شعر «العم حسنى» بالورطة.. على الرغم من الحزن

الغامض الذى تلبسه لأنه لن يسمع أمرا ما، يخشى الفرحة بسبب الكيس القماشى الممتلئ بالأوراق المالية، انتهى إلى نتيجة ارتاح لها: هى الأوامر وقد نفذها صاغرا، لكنه لا يدرى أى أوامر يعنى؟!

فى صباح اليوم التالى، استيقظ باكرًا كعادته، أسرع الخطى إلى محل الأدوات الكهربية، أشار إلى لمبة حمراء، ثم أمر البائع بتجهيز لوازمها، ابتسم الرجل، ولأنه يعرفه، مال نحو أذنه، أخبره بأنه سوف يركب له اللمبة بنفسه، وبلا أجر. وقبل أن يزيح شفتيه بعيدا سأله:

- لكن، أين ستركب اللمبة الحمراء يا عم حسنى؟

بعد فترة صمت، لم تطل، صاح زاعقًا:

- «أعلى باب حجرة النوم!!»

الخبيث لم يعقب، والعم حسنى لم يتابع، ولا بكلمة واحدة كلاهما اكتفيا بالصمت، ولكل منهما سببه، المؤكد أن البائع تبدو عليه علامات الدهشة، وإلا لماذا يتمتم إلى أذنيه: موقف غريب حقًا يصادفنى للمرة الأولى»؟!

عفوًا نطق لسان الزوجة، فاض بها الكيل، يبدو أنها ملت زوجها وتصرفاته الجديدة الغريبة، فقالت:

«ماذا تفعل فى السرير كل تلك الساعات، فى مثل هذا الوقت من النهار؟!

وأصبح سؤالها المتكرر بإلحاح، هو كل حديثها معه.

استبدل الرجل حديثه معها باللمبة الحمراء، وإن زاد عليها فيما بعد جرسا مشاكسًا. ويضىء اللمبة ويدق الجرس، تدخل عليه، فيشير إلى فمه إن صباحًا أو بعد الظهر أو فى المساء.. فلنتناول

الطعام، يكررها ثم يبسط كفيه فتفهم المسكينة أنه يريد الجريدة التى لا يتحمل قراءتها إما أن يكور قبضة يده مشيرا إلى فمه فيكون مطلبه كوبًا من الشاى التمام.. وهكذا يمضى العم حسنى ساعات يومه.. وأيامه التالية التى قاربت على السنة!!

عفواً مضت الأيام الخاملة طويلة وثقيلة. حزمت الزوجة أمرها، تلبستها شجاعة تضمرها ولم تبح بها طوال سنوات زواجهما العشرين، انهالت عليه بكل الكلمات الشرسة، وأمرته بأن يترك سريره ثم بكت بحرارة وهى تردد «الدنيا تغيرت اخرج لها».. ثم أخبرته بالمفاجأة عند باب الحجرة توقفت طلبت منه أن يستمتع بالدش والفيديو وحده، وبكل التجديدات التى طالت شقتهما أما هى فلم تعد فى حاجة إليها، لم يفهم حتى بعد أن غربت وتركته وحده مع سريره حتى يفيق.

أسرع إلى حيث يحتفظ بالمكافأة، بآلاف الجنيهات التى تسلمها ورقد إلى جوارها. لم يجدها. أسرع إلى الخارج عله يفهم من زوجته.. لم يجدها، ولم يفهم سر التغيرات التى ألمت بالشقة الصغيرة التى يقطنها.. من أثاث جديد، وطلاء جديد، و....

عفواً أو جبرًا جلس إلى أقرب مقعد فوتيه فى الصالة، اكتفى بهزهزة قدميه، تأملها فى صمت، بينما ترقرقت عيناه بالدموع، ولا يدرى لماذا تذكر نبوءة العجوز السقيمة المملة «أم السعد» وقد تأخرت طويلا!!

* * *

حدث مع النمر

«حلمى»

حينذاك كان كل شىء ضيقًا خانقا، وإلا ما كانت تلك «النفرة» أو الإيماءة التى لا تكون إلا من حصان علقت فى حلقه شوكة من تبن الأرز فيدير رأسه يمينًا ويساراً !.

شعر بضيق حيز المدرجات على سعتها أقل من حاجة عدد المشاهدين، فانتشرت الأجساد فوق الدرج وحول الحلبة.

فى العتمة بدت الحلبة بقعة نور، من حولها لم تستجب الأجساد المتزاحمة لتحذيرات حراس المروض الأشهر «عبده الوحش» استعدادًا لأهم مشاهد البرنامج المثير مشاهد مواجهة الإنسان الأعزل لنمر مفترس.

سرعان ما انشغل الحراس بفوهات بنادقهم المحشوة بالمخدر وبالرماح حادة النصل، نحو المنتظر هناك، كان قابعًا يتابع الجميع من خلف قضبان القفص الحديدى الصدئ، الملقى فى الممر الموصل للحلبة، فى الظلمة على حدود بقعة النور.

انشغل الجميع بالمروض، عارى الصدر إلا من سترته غير المحكمة بلا أزرار ولا أكمام ولا ياقة حول رقبته الغليظة القصيرة، تلك المنسوجة بخيوط القصب الذهبية اللامعة تحت الضوء الباهر، تسبقه قرقعة السوط السودانى فى يده تعلو أكثر من صوت صياح الجميع انتظاراً لمشاهد المفترس المخضوع.. مطيعًا ذليلا وكأنهم جميعاً الوحش وإلا بما تفسر نظراتهم المشدوهة وتهليل كبيرهم قبل صغيرهم حتى قبل أن يدخل النمر الذى يعرف دوره تمامًا فنهض وحده، وهو ينفر وينفر حتى أفرج الحراس عنه، ورفعوا باب الممر الحديدى الضيق!

كلما أوغل الوحش فى قرقعات سوطه أوغل الغضب فى صدر «حلمى» أكثر حينما أطلق قرقعته الأولى وهو وسط الحلبة، صاح الجميع وانتبه حلمى فلما كانت قرقعته الثانية اندفع نحو حلقة النار، اخترقها، ثم انتظر يتهيأ للقرقعة الجديدة سمعها فاقترب من الوحش وجلس على عجزيه وقدميه الخلفيتين ولأنهم يعرفون أنها ليست جلسة النمور صاحوا وهللوا.

وانتشى المروض أكثر كلما غلب ضجيجهم بضجيج سوطه وطاعة النمر.. حتى كانت اللعبة الأخيرة نجح المروض، واعتلى حلمى ذاك البرميل الحديدى الضيق.. فزاد ضجيجهم أكثر وزادت حفاوتهم. انتظر «حلمى» قطعة لحم تملأ جوفه، يتمنى لو يأكل ما يشتهى عوضًا عن تلك المشقة.. لكنه لاينال سوى قرقعات تعلو وتعلو.. أكثر كثيرًا من كل ليلة.. يبدو أنه مطالب بدفع ضريبة

انتشاء الوحش وسعادته التى فاضت فيعيد ويزيد من أوامره وينفذ حلمى صاغرًا.

انشغل الوحش بتحية المشاهدين.. مثلما انشغل حلمى برأسه، وقد بدا على غير المعتاد حزينًا فمنذ دقائق كانت مشاهد الأسود.. بينما فرقعات السوط السودانى كان حافز الوحش معها، قطعة اللحم الطيبة يلقمها للأسود وهو يربت على لبدتها وعندما انتهت المشاهد أسرع مجموعة الأسود المشتركة التفوا من حوله، أمرهم بالنوم على جنوبها ونام إلى جوارها، ثم نهض واقفًا فوق أجسادهم يرد تحية جمهوره.. معانقاً هذا، مربتاً على ذاك، ثم يلقم الجميع ما يحبون.

لماذا إذاً السوط واللحم للأسود؟.. هذا ربما ما دار فى رأس النمر الذى شعر وكأنه فقد الثقة فى نفسه ما معنى تلك النظرات الغامضة الغريبة لمدربه وسط بقعة النور وحده محييًا.. رافع اليدين مفتوح الشفتين. نافر العضلات والأوداج؟!

كانت لحظة أن ألقى حلمى بنفسه على الوحش فى وثبة طولها عدة أمتار. غير متوقعة، فانبطح المروض أرضًا، وسقط النمر فوقه عفوًا، وهو ما جعل جسد المدرب يهرس هرسًا. ويشعر الجميع بالخطر.. انقض الحراس بما يحملون نحو حلمى الذى بدا وكأن شيئا لم يكن.. اتجه من حيث أتى ونخ داخل القفص الحديدى الصدئ وحده فى الظلمة.

على أية حال بدأ الناس فى الانصراف وهم ينظرون خلفهم وكأن النمر حلمى كائن بألف ناب وظفر. الخوف يفوق نشوة الانتصار الذى كان.

عندمـا وصل رجل وزوجـتـه إلى بسطة السلم الخـشـبى ذى الدرجات الخمس، والموصلة إلى خارج خيمة السيرك اطمئنا أنهما الآن فى الساحة الموصلة إلى الشارع الخارجى المزدحم بالسيارات المسرعة، الغافلة عما كان منذ قليل قال الزوج:

ـ لماذا غضب النمر حلمى.

عقبت الزوجة بسؤال ولم تشأ تجيب، قالت:

ـ بل لماذا لم يقتل عبده الوحش؟!

ـ حسبها حلمى بحكمة، لو فعلها لقتلوه فى الحال.

ـ بل سيقتلونه.. أكيد.. عاجلا أو أجلا!

ـ لا يوجد قانون يمنع أى مدرب من قتل حيوانه!

ـ لا أوافق .. هل من حق أى إنسان إزهاق روح حيوان لمجرد أنه يتحكم فيه..!

لم تنته المناقشة إلى نتيجة، على الرغم من قرارهما العودة سيرًا على الأقدام حتى منزلهما الذى يبعد أكثر من خمسة كيلو مترات من موقع السيرك وهما فى طريقهما إلى الدرج الموصل إلى شقتهما ، توقفا حسمًا لمشكلة جدت ولم يختلفا أو يتفقا فيها من قبل، فقد قال الزوج:

ـ بل لماذا فعلها حلمى.. ما سر هذه العدوانية بينما الأسود لم يفعلوها؟

ـ ربما لأن حلمى تدرب على صوت السوط السودانى.. والأسود على قطع اللحم الطيبة.

- لكن كليهما من أجل هدف واحد..

- ولو .. الأكيد أن النتيجة ليست واحدة!!

عندما نجح الزوج في فتح باب الشقة بحركة آلية بمفتاحه حرصت الزوجة على غلقه جيدًا وبإحكام.

حكاية قصة لم تبدأ ولم تنته!

كان من الممكن أن أسحب إحدى القصص الكثيرة من قبل عن تجربتى فى الحرب، غير أن الأصدقاء قبل النقاد ربطوا اسمى بتلك التجربة وكأننى لم أكتب سوى عن تجربتهم هم لا عن الإنسان فى شخصى، وكأنى إنسان بلا حياة ولا تجارب.

من شدة وطئة هذه المؤامرة ، بدأت أفكر فى حيلة لا يستطيع الناقد أو القائم على أية صفحة أدبية أن تبين له، أن أكتب عن الحرب وكأننى أكتب عن حياتى، أو أكتب عن حياتى وكأننى أكتب عن الحرب.

سحبت ورقة بيضاء من غير سوء خططت خطوات الحيلة. بداية من تحديد الهدف.. وهو كتابة قصة (اكتشفت منذ فترة طويلة أننى لا أجيد إلا كتابة قصة، لم أعتد على اليوميات أو المقالات). فالقصة وحدها القناع الخفى الظاهر الذى أتخفى من تحته ولا يستطيع أحدهم أن يتهمنى بسوء الأدب (أعنى سوء السلوك) حتى لو شرحت أحوال اللذة الجنسية وأنا هائم فى

أسرار النفس البشرية أسعى لإبداع متعة بديلة!... فالذى لا يعرفه البعض أننى لم أتزوج حتى تاريخه لقصر اليد، بينما أسعار الشقق فى حاجة إلى يد طويلة حتى عبرتنى سنين الزواج ولم أعد أصلح إلا لتربية العصافير فى شرفة الشقة التى اشتريتها أخيرًا.

وبالقصة وحدها لن يتهمونى بأننى من قوى المعارضة السياسية أو الحزبية، عندما أجمل فى مساكن الإيواء، والعشش التى يقطنها سكان ضواحى القاهرة والمدن الكبرى فأجعل من السرقات بالإكراه التى زادت، وسيلة للحياة وأكرر حكاية أدهم الشرقاوى بحيلة بسيطة، فأجعل بطل قصتى «طلحة» أو «شبارة» أو أى اسم يبدو بلا معنى ولأننى ممن درسوا علم الجمال والنظريات النقدية، سوف أتعلق بنظرية جمال القبح!!! (أحد الفنانين التشكيليين من الخبثاء من سكان حى السيدة زينب، التقط مشهد المخلفات فوق أسطح المنازل التى يطل عليها من نافذة شقته العلوية، وسجلها - كلها - فى لوحاته، ولم يرسم غيرها).

وبالقصة فقط لن يتهمنى أحد، على الرغم مما تسببت له من ألم وفضائح، لن يجرؤ أحدهم أن يواجهنى بتهمة السب أو القذف! لن يحرر محضرا فى قسم الشرطة ضدى، بالاعتداء على كرامته... أدير دفة القصة بحنكة وخبث ناحية من أقصد سبه وقذفه، كأن أسجله باسمه وأقول تشابهاً فى الأسماء، وأن دليل التليفونات ملىء بالاسم محل الشكوى. أو أقول ما أقوله وقد جعلته فى أدنى درجات السوء باسم مستعار وبقية الأوصاف والأحوال تؤكد أنه هو ولن يجهله أحد.

وأخيرًا أميز ما تتميز به القصة أنها تحمينى من سطوة جهات خفية، تعلم أننى من هؤلاء المتابعين الفاهمين ولكننى من الخبثاء، فلا أفصح عما أريد، ولم أعبر الخطوط الحمراء، من يفهم يفهم، ومن لم يفهم. فهم الغالبية، وفى كل الأحوال أستطيع أن أقسم بأغلظ الأيمان أمام القاضى وأنا أضع المصحف على صدرى.. أننى لا أعنى ما يتهمونى به. خبيث ذلك الذى اخترع القصة. وعلمنى كتابتها!!

عادة أبدأ القصة وأنا على مشارف عنوانها، إن لم يكن مكتوبًا بالحرف والكلمة على الترتيب، لكن الغريب أن تلك القصة التى قررت أن أتخابث وأتوجه بها إلى الجميع، بدأت بلا عنوان، وهو ما جعلنى أشعر بشىء من الضجر والقلق.

أصبحت من محترفى كتابتها، أعرف أن أبدأ بفكرة واضحة أو حتى ملتبسة لا يهم، ثم أقرأ بعض من الشعر، ثم أحتسى القهوة التى تبدو وكأنها السحر الساحر، وأدخن، مع كل فكرة جزئية جديدة أنتهى منها، وأية جملة لم تكن على الخاطر، أكافئ نفسى بسيجارة. ثم قبل ذلك كله أفتح النافذة على مصراعيها، إن صيفًا أو شتاًء.

فيما سبق كنت أستخدم ـ غالبا ـ ضمير المتكلم، حتى ظن النقاد قبل الأصدقاء أننى أكتب عما حدث لى شخصيا، أقسم أننى لم أر جنديًا إسرائيليًا واحدًا طوال فترة الخمس سنوات التى قضيتها فى السويس أثناء المعارك وما قبلها.... لا يصدقنى أحد.. هكذا أنت دائما متواضع، وتخجل بالحديث عن نفسك. أنت بطل، يا بطل.. يبدو أن الناس تريد بطلا.. لا يهم، موافق!..

سوف أستخدم ضمير المخاطب، لا أريد أن يخلقوا صورة كاذبة عنى، سوف أخاطب عقولهم لا خيالهم ، لعلهم ينتبهون، المشكلة تتجدد، سوف يضعنى ضمير المخاطب هذا فى ورطة.

أتذكر يوم أن استخدمته للمرة الأولى وتبت بعدها. قدمت القصة إلى المحرر الوقور المجهد المشعث وقد غلبته أشياء لم أدركها فى حينها.. ولكننى وصفتها بأنها ضرورات الفن. والصحافة .. كثرة التدخين، أن ينظر إليك مجهدا ملولا، أن يكتب ثم يسرع ويمزق ما كتبه، وأشياء أخرى قد تبدو فردية. وكأن يفعل ما قلته لك وعندما تهل كاتبة مجهولة الهوية يبدو منفرج الشفتين من الأذن إلى الأذن على حد وصف المثل الأمريكى.

يوم أن قدمت القصة إلى المشرف الأدبى إياه.. سحب الورقة من يدى أقول شدها بملل وزهق وقرف قائلا: هات كنت قد انتويت قراءتها له، فضل أن يقرأها بنفسه، ومع السطر الأول تبدلت كل ألوان الطيف على صفحة وجهه، بعد الفقرة الأولى رمى نظرة من تحت نظارته الطبية المعلقة وسط عظمة أنفه. بعد الفقرة الثانية سحب شهيقا عميقا. وقبل أن تنتهى الصفحة والقصة ضرب المكتب بكفه الفئرانية الصغيرة، تقصد من يا آيها الصعلوك النكرة الهلفوت .. أنا أم الأستاذ وحتى الآن لم أعرف من هو بالضبط الأستاذ الذى يعنى.. فيومها لم يعطنى الفرصة كى أتكلم. ولا أقول أو أشرح وقتها لم أكن قادرا حتى على تبرير استخدام الضمائر فى القصة ولا فى الحياة..!

موضوع الضمائر مع المشرف الأدبى فى أول قصة استخدم فيها ضمير المخاطب، صنع لى عقدة. فى القصة والحياة، أوضح لك المسألة أكثر.. إذا استخدمت ضمير المخاطب فى الحياة فأنت مضطر لاستخدام ألفاظ غير المعتادة حتما، مثل سيادتك وحضرتك ومعاليك وسموك وكلها باتت شائعة جيلى الآن يستخدمها بأكثر من استخدامها قبل الثورة، قبل الثورة كانوا يسبقون الأسماء أو يلحقونها بلقب بك أو باشا ودمتم. الآن المسألة تعدت البيه والباشا الباشا عبود بكل ما تعرفه عن ثروته كان يملك خمسة ملايين جنيه مصرى. أقسم أن الحاج «قرمه» جزار العمارة التى أقطنها يملك أكثر من عبود باشا لكن العملة بالدولار.

سوف يتعدى الأمر مسألة استخدام مفردات خاصة، الوضوح فى الفكرة والإشارة وهو ما يعنى تحديد المسئولية المباشرة للمخاطب، سوف يوقعك فى ورطة توجيه التهم للآخر، تخيل أن القصة تتناول الشرير الذى استولى على تيمة فكرة قصة حول موضوع «الحرب» وتجربته (مثلا) وكيف أنها لم تعد هى المقاتلة والانتصار الدائم والبطولة والفرح...؟

أصبحت تعنى البحث فى دخائل الشخصيات وإبرازها تجاه تجربة خاصة جدا، وأثناء لحظات يصعب على المرء التفكير فيها أو إقرارها أو حتى تخيلها، ولولا أننى رأيتها بعينى رأسى، ما كتبت عنها.

تجربة الحرب فى القصة التى أريدها، لا تصرخ فرحًا، بل تندم على سوء الفهم والغباوة التى يمكن أن تمتلك جماعة أو حتى دولة

بأكملها ، كما أنها تعنى الموت فى مقابل الحياة، إذا كان ضروريا ولابد من الموت، بدلا عن العيش فى هوان أو مذلة سرقة الأرض والشرف، يبدو أننى سأتكلم مثل الجميع. وأعود إلى مقولاتهم الجاهزة، بينما أريد قصة غير مسبوقة.

نعم، نعم.. التجربة الحربية التى سوف أشكلها فى قصتى سوف تعنى تأمل الجديد.. مثل لحظة مجنونة يقرر فيها أحدهم أن يلقى بنفسه على فوهة المزغل الذى يحمى مدفعًا سريع الطلقات.. ماذا كان فى رأس «عواد» وهو يسرع الخطى، يتقدمنا، كى يلقى بنفسه .. ليموت؟

لو نجحت فى إبراز الأسباب بطريقة فنية، غير مفتعلة ولا منفعلة، سوف يعترفون أننى كتبت قصة حربية غير مسبوقة ، وأن تجربتى الخاصة جدًا فى الحرب، ليست هى، هى، تجربتهم. ما ذنبى وأنا أرى الجندى «فوزى» فى ميدان التحرير، يهل على وهو يعرج فرحًا أن رآنى ثانية، وقد نلت الوظائف العليا فى الدولة، وشاهد صورتى فى إعلان خاص عن الشركة التى أتبوأ مكانًا مميزًا فيها، بينما لم ينجح أحدهم فى نزع الرصاصات من قدمه، وأصبح ساعيًا فى دهاليز ديوان وزارة الأوقاف. وبلاعمل حقيقى . آه يا فوزى، كنت أقوانا، وأشجعنا، أتذكر جيدا خبثى وكلانا داخل الحفرة البرميلية الغائرة. ولفترة زادت عن الساعتين ، زهقت، طلبت منه أن نخرج لأننا لسنا جبناء نبقى هكذا تحت الأرض بينما الزملاء يقاتلون ويردون الرصاص بالرصاص.. هاجت حميته المعتادة وخرج مندفعًا من فوهة الحفرة، وأنا أقذف به بكل طاقتى

كى يخرج.. و .. ولم أتبعه. سمعت فجأة صرخة حتى حدود الحاجبين رفعت رأسى من فوهة الحفرة، رأيته مصابا، مدرجا فى دمائه.. تقلصت فى الحفرة ليلة ونهارين. تذكرت الآن.. لماذا تذكرت فوزى، لأن أكتب قصة البحث فى أسباب ذلك الذى قد ساقه وظل يدافع عن موقعه وخندقه حتى فقد بقية جسده ثم روحه .. يعنى أجعله بطلا، هو يريد ذلك، والناس.

والبحث فى دلالة البطولة والمقاتلة ومعناها.. يعنى البحث فى أسباب تلك الشراسة التى يحارب بها الجنود وهم قلة من أفراد القوات الخاصة فى مواجهة رطل من دبابات الأعداء.. والبحث فيما كان عليه حال «عبدالعاطى»» وهو يبكى يشارك فى مهاجمة لواء الدبابات المهاجم، ثم وهو يحرق الدبابة تلو الأخرى، وقد اقترب بشدة من الدبابة إلى الحد الذى أدهش الجميع ثم البحث فى ذلك الرقيب الذى اصطاد عددا من الدبابات المعتدية أكثر من «عبدالعاطى» ومع ذلك لم يسمع عنه أحد. حتى أنا نسيت أسمه، لا يهم!

وأخيرًا ربما تكون القصة حول فكرة اتخاذ القرار.. وأخاطب صاحبه، هذا سيجعل من فرصة نشرها أسرع، لن يتهمونى بسوء النية، وستحل كل مشاكل استخدام أسلوب ضمير المخاطب، لأننى ببساطة سوف أتساءل عن ذلك الجنى الذى همس فى أذنه باتخاذ قرار دخول المعركة، ربما لأنه موقن بشجاعة رجاله قبل كفاءة سلاحه، أى معيار اتبعه وأى تاريخ قرأه..!! الأمر الآن وبعد كل السنوات التى تعدت الخمس والثلاثين سنة على بداية ميعاد

اشتعالها، يتعدى وصف الأفعال، يجب أن يتناولها الجميع بالتحليل والبحث عن جوهرها ، لأنها بالعقل غير قابلة للتصديق!

لم تهن على نفسى ، كل ما انقضى من وقت.. ضاع، ناقشت الفكرة.. فتاهت ، ناقشت تفاصيل التقنية الفنية واستحضرت خبرة كل ما قرأت وسمعت فتبعثرت.

قررت أن أهون على نفسى، وأن أقضى بعض الوقت أمام شاشة التلفاز، لعلى أرى إحداهن ترقص وأخرى ترقص أيضًا. فعلت، اعتدت أن أخفى الصوت وأنا فى حالة الكتابة أو التمهيد لها حتى لا تشوش رأسى بما أسمع .. يكفينى جدًا أن أراها ترقص.

لم أر راقصة، رأيت بركة دماء، وبيت يتهدم، وطفل معلق بشجرة يبكى على جذعها الخشبى وهو يتابع البلدوزر يذبح لوحة الشطرنج وكرته الكاوتش وكراسته، رأيت مئذنة أعرفها، منذ عشرة أعوام كنت أمامها فى زيارة إلى ضريح «على» ومقهى بشارع «أبى نواس»...

سألت رأسى وجعلتها لعبتى حتى آخر الليلة... هل ما رأيت هى العراق أم رفح فى فلسطين أم جنين.

وحتى نهاية الليلة، حيث لم أفتح صوت التلفاز، ولم أعرف الإجابة. نسيت موضوع كتابة القصة.. لعنت قصتى وكل قصص العالم والقاصين، وكل الضمائر التى استخدمتها من قبل والتى سوف يستخدمها قلمى وقلم كل الناس فى المستقبل!!

كـذبت امـرأة

كان باب الشقة عاند الانفراج، حتى سمعت وزوجتى من خلفه، صوت حشرجة وخشخشة، لم أعرف مصدره، إلا بعد أن هاجمتنا كومة ضوء باهت، احتوت الممر المظلم.

بدت لنا من خلال الفرجة الضيقة.. مترددة فى دعوتنا للدخول، نظرت إلى زوجتى سريعا، وإلىّ مليًا حدقت مبحلقة فى صمت.

لأننى أعرف ماذا أريد، ولماذا جئت؟.. قررت ونفذت ما لم أستطعه منذ عشرين سنة، لعشرين سنة تمنيت لو أرى موقع سترها مع زوجها الذى فضلته على. اقتحمت المكان الذى يمارسان فيه ما تمنيته معها، هى حبيبتى التى كانت وهو زوجها الذى مات.

سارعت بالاندفاع إلى الداخل، على غير قواعد «الإتيكيت» التى عادة ما أتبعها مع زوجتى، أو أية امرأة أخرى، بالضبط كما سارعت بالثرثرة، لم أكن أدرى ما ينطق به لسانى، انشغلت عيناى بجوانب الحجرة، ذى الطلاء المتشقق، وحتى ارتطمت بعينيها، أعترف، أنا لم أذهب للعزاء، كنت أتحدى الزمن الذى انقضى؟!!

نطقت بكل الكلمات المملة السخيفة التى أعرفها فى مثل تلك المناسبات الموجعة، ألفاظ العزاء كلها كاذبة.. كل همى ألا أترك لها فرصة واحدة لاكتشاف كذبى، فبالغت فى العزاء. المدهش أنها تركتنى أثرثر بلا أدنى انفعال، تمنيت لو لم تصمت، علنى أتأكد أنها لم تكتشف ما أضمر.

فجأة، توجهت بكليتها ناحية زوجتى : «أهلا يا حبيبتى»، لم تحاول أن تومئ برأسها شاكرة، أو حتى تسبل جفونها امتنانا بما سمعت، انزاحت إلى مقدمة المقعد الفوتيه ذى القاعدة المتسعة، وأدارت كل جسدها.. كله، حتى قدميها، وقد ارتدت «شبشب زنوبة» بلاستيك، لم تسع لأن تستبدله من باب اللياقة مع ضيوفها. ولا حتى استبدال هذا الجلباب أو الفستان الكالح الأسود، لمحت أحد أزراره الصدفية البيضاء يتدلى على الجانب الأيسر لصدرها. طلبت منها لو تمزقه حتى لايسقط وتفقده، الغريب أنها ابتسمت ولم تعقب، فضلت الحديث مع زوجتى الصامتة.

قالت ضمن ما قالت، أنها تعيش خريف العمر، وأن زوجها مات فى الوقت المناسب!. أظن أنه فى مثل تلك المناسبات، لايتحدثون سوى عن مآثر موتاهم. وربما التأكيد على الشعور بالحرمان بسبب فقد المرحوم.. ماذا فى رأس تلك السيدة المحنكة؟!

اقتحمت حديثهما، الذى هو من طرف واحد، بدأت بذكريات طفولة الولد الجن .. طفولتى، وشبابى الماجن، وكيف أننى لم أترك ضلالة إلا وعقرتها إمعانًا فى أننى فقدت شيئا لم أستشعره فى حينه، أما الآن..

مـا أن نطقت (الآن)، حتى أزاحت «الشبشب»، وأخفت قدميها تحت فخذيها . فضلت أن تستريع فى جلستها. هكذا فى بساطة وسلاسة العشم ، بلا أدنى درجة من الحرج، على الرغم أنها لم تر زوجتى من قبل. زوجتى التى لم تنبس ولم يبدُ عليها علامات القبول أو الرفض.«ماذا لو شربنا فنجانا من القهوة.... السادة؟»

وكأنى لم أنطق، تابعت هى حديثها الغامض، بينما لمحت أنا أظافر زوجتى تسحج المسند الخشبى لمقعدها.

بعد كل تلك السنوات لم أكن أعرف أن هذه السيدة التى أظن أننى كنت أحبها، تستطيع أن تكذب!!

كيف لها بكل تلك القوة.. وأدارت جسدها ضد رغبتها؟، على يقين أنا، أنها على شوق لأن تنظر إلى بؤرة رأسى من خلال فرجتى عينيها.. واثق أنا، مثلما كانت تفعل، وتفتعل الأفاعيل كى لا أنظر إلا لعينيها. وماكنت أرى عينيها إلا أنها من عسل ولبن وخمر لايسكر.

سيماء وجهها محايد فى بلادة. لايبدو عليها التفاته المنتبه إلى جسده الذى يتكاثر. ماكانت إلا رشيقة القد، نحيلة فى رقة، كانت نسمة موجة بحر مالح تتهادى.. لاتعلو ولاتبقى ساكنة.

ذاكرتها البيضاء، اكتشفتها من كلماتها.. لايقدر عليها إلا من يكره على فعله ما تبدو لى وهى تتلمس جسدها على غير إرادة منها، منهمكة فى حديث لم أسمعه، ولم تنفعل له زوجتى الصامتة. فقط، أراها تربك هذا الجسد، وبحذق خبرة الأيام تابعت وشوشات

أناملها، تلك التى بدت وكأنها كائنات غامضة تزحف فوق صحراء فسيحة.

شعور أشبه بالفرح انتابنى، أحسسته بين ضلوعى، لأنها تريد أن تكشف لى عن أسرار جسدها!!.. وإن بدا لى عن غير إرادة منها، وهكذا يبدو عفويًا!!

طال انتظارى، أكيد تلك السيدة تضمر أمرًا لا تريد الإفصاح عنه، بينما تبدو زوجتى كلوحة «الموناليزا» التى تظنها تراك أينما كنت واقفًا أمامها.. لولا أن لمحت تلك السحجات التى بدت أكثر عمقًا عما قبل، فى المسند الخشبى لمقعدها!!

فلما عبرت عتبة باب الشقة إلى الخارج مسرعا، عانقت السيدة الحزينة زوجتى التى بدت باسمة، وطلبت منها معاودة الزيارة.

سألتنى: «كم انقضى من الوقت؟»، أخبرتها واثقًا: «ساعتان».....

فضحكت زوجتى بفرح غامض، وبصوت عال، بينما نحن فى حدود مسامع حبيبتى: «بل أقل كثيرا من ساعتين»

انفرط العقد، لا أدرى كيف اندفعت قائلا بأنها سيدة مملة، ولاتحمل أى قدر من الكياسة أو الذوق، حتى أنها لم تقدم القهوة السادة الواجبة.. وكيف أنها لم تستقبل عزاءنا بالحزن الواجب؟ وكأننا جئنا لرؤية قوامها البدين، وطول قامتها القصيرة، وشعرها المجعد، والهالة السوداء حول عينيها المدغمستين.. إنها سيدة

مـــريكة حـــقًا.. نادم أنا على مـــابذلناه من جـــهـــد من أجل مواساتها.......

اقتـربت زوجتى أكثـر، كنا مـازلنا فـوق إفريز الشـارع، كادت أن تسـد فمى بصفحة وجهها بينما أطراف أصابعها فوق شفتيها، تأمرنى بالسكوت..

فسكت.. ليس لتحقيق رغبتها، ولا كرها فى الأرملة، ولا لأننى اكتفيت بما نطقت.. لأن أطراف أصابع زوجتى بدت واضحة لى، مصبوغة بالدم، وقد علقت بأظافرها نسائل رقيقة من ألياف خشب مسند مقعدها الفوتيه هناك.

* * *

القسم الثالث

قصص قصيرة بلا عنوان

حكاية

يحكى أن عمدة قرية بعيدة قديمة، اشتهر بين الجميع من أهل قريته والقرى القريبة باعتباره أقوى الرجال لأقوى القرى، وبينما كان يراقب الأطفال يلعبون بمرح عند شاطئ النهر. تساءل: ترى ما مصيرهم عندما يكبرون ويصبحون محاربين، مثلى ومثل صحبى الذين فقدتهم مبكرًا فى المعارك؟

هكذا كان يفكر ليل نهار فتوصل إلى أن الأطفال لم يأتوا إلى العالم من أجل التعارك، وأن كل مايحتاجون إليه عندما يكبرون أن يعملوا فى سلام، وهو ماجعله يقرر الاجتماع بشيوخ القرية، تحدث إليهم طويلا، وفهموا أنه على صواب، قرروا ألا يعلموا أطفالهم ألعاب التعارك، إلا فى حالة الشعور بالخطر أو حدوث هجوم ضدهم.

تولى أقوى شباب القرية مهمة إبلاغ الرسالة إلى القرية المجاورة، اعترضت طريقه صعاب جمة، لم يشعر باليأس.

فلما عرف سكان القرية بأسرار المهمة، خرجوا لتحيته وحمله على الأكتاف .. قبل أن يصلوا به إلى خيمة العمدة.. كان الزعيم فى اجتماع طارئ وسريع مع محاربى القرية..

ثم أمر الرسول بإبلاغ الرسالة التالية كاملة: «إننى سوف أخرج مع أهلى ورجالى وشبابى». وخرج مع أهله ورجاله وشبابه، تقابل فى منتصف الطريق بين القريتين، هناك حطم كل الأسلحة. أعلنت الأفراح فى القريتين، خرج الجميع من هنا ومن هناك إلى الطريق الموصلة فيما بينهما، تصافح الحاكمان، اختفت كل الأسلحة، ظهرت الآلات الموسيقية وعلت أصوات الغناء ورقص الجميع.. من كبير وصغير. سهرت الحيوانات البرية من حولهم، وأطلت الأسماك من مياه النهر، والشمس لم تشأ الغروب، ولأول مرة قبلت وجود القمر إلى جوارها فى نفس الوقت.. ففرح الجميع أكثر.

لولا حادثة بسيطة جدًا حدثت، لاستمرت الأفراح لسنوات وقرون طويلة، وربما حتى الآن!.. لولا أن تصادم شابان يرقصان مع فتاتين جميلتين، لولا أن سال الدم من رأسيهما مصادفة. بسبب عنف الصدام فيما بينهما لم يستطع الشابان التعبير عن غضبهما، لكن ماحدث بالضبط أن تولى أهل القريتين، كل سكان القريتين تولوا تلك المهمة.

ماحدث من بعد أدهش الجميع، فقد ظلوا يتقاتلون معًا حتى أهلكوا بعضهم بعض دون تفرقة.. من يطول أحدهم رقبة جاره، يفتك به، دون أن يعرف من أية قرية يكون، ولما عرفوا السبب من بعد، أعلنوا عذرًا مناسبًا، يبرر لهم وللأجيال القادمة ماحدث من عار.. ذلك لأن الشمس غضبت مما حدث فجأة وعلى غير اتفاق، فذهبت بعيدًا...

كما انزوى القمر خجلا...

فأظلمت السماء والأرض، ولم يعرف أحدهم من يقاتل من؟!

البهيمة

لأنه كان لايزال صغيرًا، كانوا لايعبأون كثيرًا بوجوده، وربما يطردونه من جلستهم، ففى جلسات الرجال ليس له الحق فى المشاركة ولا حتى بالتعليق عما يسمع، وفى جلسات النسوة ليس من حقه الاستماع إلى كل مايتفوهن به.. ربما لأنه أهم كثيرًا من أحاديث الرجال.. وإلا لماذا يعمدن إلى الهمس والغمز واللمز؟!

على الرغم من ذلك، سمع والديه يتصايحان دون أن يعبأ أحدهما بوجوده:

نحن في حاجة إلى بهيمة بدلاً من تلك التى ماتت حين غفلة.. يجب البحث عن وسيلة، ماذا نفعل؟!

ولأنهما لايملكان بهيمة، كانا يبحثان فى كل الوسائل، وعند كل الجيران، ولم يلتفتا إلى ولدهما القابع تحت أرجلهما، مشرئب الرأس، معلق الأذنين.

ظل معلقاً بهما فوق عتبة الدار حتى فقد ظلهما وضجيج صوتهما المعلق بهما. تركاه وحيدًا، كلماتهما فى أذنه حتى سمع من يأمره.. أن يكف عن البكاء وأن يتأمل أصابع يديه!

بدا وكأن يدا خفية قذفت به، رمته فوق شاطئ النهر، فتعلقت الأتربة بجلبابه، لم يعد يشعر بالوحدة، مع ذلك غلبته الدموع، صنعت طينًا من حوله.

كان فى مثل تلك الجلسات، يعبث فى الطين، يصنع كرة أو حتى ثعبانا، لكنه فى هذه الجلسة صنع أربع أرجل، وذيلا غير قصير، وفى المقدمة شكل مايشبه رأس البهيمة، انشغل بصنيعه كثيرًا حتى نسى أنه لم يأكل بعد.

فلما عاد إلى الدار، ورغب فى النوم من شدة التعب، سمع صوت الهاتف يأمره: «خذ البهيمة لترعى فى الحقل القريب». ذهب ولم يعد إلا بعد غروب الشمس، هاله أن وجد بهيمته وقد كبرت، وكبر ضرعها حتى لامست الحلمات الأرض!. وهو ماأدهشه ووالديه.

لم يسأله أحدهما من أين جاءت وكيف؟!!، سألاه فقط: «هل البهيمة لنا؟»، لم يرد وإن انطلقت بسمة سعيدة غامضة، أسرعت الأم إلى الضرع، شربت وشربوا جميعًا حتى كسا اللبن الدافئ اللذيذ نحورهم جميعًا، يحار من يراه إن كان اللبن متسربلا من أعلى إلى أسفل أم العكس.

وعلى الرغم من أنه سمع نفس الهاتف يأمره بأن يتأمل نفسه فى مياه البئر القريبة، وقد تشكلت رأسه كرأس البهيمة وأصبح من ذوات الأربع ويملك ذيلا غير قصير.. عمد الصغير إلى إحكام إغلاق جفونه أكثر كثيرًا عما قبل.

* * *

سـؤال

فى زمن لايعرفه أحد، كانت المياه تسقط من ارتفاع شاهق، فتصنع شلالا يبتلع كل مايصادفه، وتصدر صوتًا كصوت الرعد.

ابتعد الناس عن مكانه إلا من صبى صغير يكبر.. سنة بعد سنة يسعى لأن يصعد الشلال.. فأطلقوا عليه لقب «الولد الجن» بسبب مغامراته كل ربيع.

يتجه نحو الشلال حيث تفور المياه وهى تزمجر فى الهواء فى طريقها من أعلى إلى أسفل.. يتمنى لو ينجح فى الوصول إلى ذروته، ليس بهدف اجتياز الصعاب، لكنه يسعى لأن يرى تلك الفتاة الجميلة التى كانت سببًا فى صنع الشلال.

قالوا إن الفتاة الجميلة الصغيرة تقدم لها شباب القرية كلهم، لكن أهلها زوجوها بعجوز بخيل، ظنا منهم أنه سيعطيهم من أمواله، لم يفعل العريس العجوز، كان يترك عروسه بلا طعام ولاشراب يشغله تأمل أمواله.

قالت العروس فى نفسها: «الأفضل أن أهرب»، وفى الظلام خرجت من الخيمة حتى وصلت إلى قمة الصخور المرتفعة، لم

تكف البكاء فانسابت الدموع، وهطلت كالأمطار فصنعت الشلال.

منذ تلك الليلة لم يرها أهلها، وجيل بعد جيل يردد حكاية الشلال. إلا الولد الجن الذى قرر وحده مقابلة العروس.

ظن أنه لو علق قاربين صغيرين فى قدميه، يمكنه اعتلاء مياه الشلال.. فعل وفشل. وفى الربيع التالى، ظن أنه سوف ينجح لو علق طائرين كبيرين على ذراعيه يمكنه اعتلاء الصخور من الجهة الأخرى.. فعل وفشل.

وفى الربيع الثالث استنفر الولد الجن كل خبراته ومعلوماته وماسمع وماعرف حول الشلال.. فكر مليا فى طريقة جديدة مبتكرة يصعد بها إلى الفتاة.

دبر أمره، ولما اهتدى إلى الطريقة والطريق، لم يبق أمامه إلا سؤال واحد لماذا كل هذا الذى أصنعه؟

على الرغم من نجاحه فى الإجابة على كل الأسئلة التى وضعها لنفسه، إذا به يصاب بما يشبه الإغماءة.. لم يجد فى رأسه إجابة!!

* * *

الخماسين

كانت الخماسين تحكم أرض الصحراء التى لاتعرف الاستقرار أبدًا.

رغم ذلك، لم يخف منها العصافير، لأنها لاتحكم الدنيا كلها.. فرياح الجنوب تقدر على قهرها، حتى وإن بدت أضعف منها.

الأمر ليس على هذه الدرجة من السهولة، فريح الخماسين لاتترك فرصة لبشر بالحركة إلا وتملأ العيون وفتحتى الأنف بالرمال الساخنة.

تعرف العصافير تلك الحقيقة، كما تعرفها الناس والأشجار والحيوانات، فالناس يلجئون إلى خيامهم المحكمة. أما الحيوانات، فلكل صنف منهم خصلته وخلاصه. الثعابين والسحالى والديدان تعرف كيف تعيش بين الرمال.. والفئران تصنع بيتًا له ألف باب فتضل الريح طريقها إليها.. ولا عليك فالجمال والماعز وبقية حيوانات البدو تملك صبرًا يحسدها عليه الجميع.

وحدها العصافير هى القادرة على أن تحتفظ بهدوئها، وتصدر الأحكام التى يصعب على الآخرين اتخاذها، وإلاّ بما تفسر.. يسمعونها تنادى على رياح الجنوب غير عابئة بشباك الصيادين؟!

شعر الجميع بالرعب وهم يشاهدونها تعدو طائرة جنوبًا، بينما الخماسين تملك من الحيل الكثير، قادرة هى على الفتك بتلك العصافير الصغيرة.

لن تترك لها فرصة لأن تذهب إلى ريح الجنوب الندية..

فخرجت الحيوانات والزواحف والناس من تحت الأرض وفوقها.. يحذرون:

«ريح الخماسين أقوى منكم ألف مرة

قادرة هى على أن تهشم الأشجار الراسخة

لاتجعلوا شيئا يتحقق بالقتال من غير أن تأخذوا حذركم

ومهما كان عدوكم أقوى أو أضعف منكم.

هل تسمعوننا ياعصافير السماء؟

إذاً لم تسمعوا.. ربنا معكم!!»

* * *

قـرص الشمس

جمعهم قـرص الشـمس كعادته كل نهار، حتى جاء مسـاء شتوى طويل، فـقـرر رجـال الوادى البـارد ألا يتـركوا قـرص الشـمس يغـيب عنهم أبدا!!.

وقال كبيرهم: «حان الآن ميعاد قطف قرص الشمس»

طلبوا من نسائهم أن يضفرن حبلا طويلا من شـعورهن. ينجحن فى قص الشعر، صنعن منه حبـلا قويًا مناسبًا، لكنه لم يكن طويلا بما يكفى.. فقد كان طريق الشمس طويلا جدًا.

وصلوا إلى صـخرة سـوداء لامـعـة بعـيـدة ومـرتفـعـة فـوق قـمـة الهـضبـة، ليس عليهم سـوى وضـع الفخ الحـديدى، نجـحوا فى صنع فخًا من كل حدائد قريتهم، لكنه لم يكن كبيرًا بما يكفى.. فقد كان قرص الشمس كبيرًا جدًا.

راودتهم فكرة خـبيـثـة، خلعوا مـلابسـهـم، رتقـوهـا مـعًا، صنعـوا ستارًا. لو وضعوه بعيدًا ضمنوا قنص قـرص الشـمس قبل أن يغـرق عند الأفق البـعيد. نجـحوا فى كل خطوة، وإن فـقدوا كل سـترهم، لم

يخطر ببالهم أن قرص الشمس هكذا ... راوغهم وهبط بعيدا جدًا، فقد كان قرص الشمس أخبث منهم.

ماذا لو نجح كل منهم فى القبض على جزء من قرص الشمس المراوغ، من فتحة نافذة الخيمة، من بين فروع الشجرة الباسقة، وحتى من بين شقوق الجبل...؟ وفى المساء يلملمون مايمتلكون، يصنعون قرصًا كاملا للشمس.

هاهى ذى الشمس تشرق، تعلو فى السماء، تتسلل النوافذ، تخترق الشقوق وأفرع الأشجار الكبيرة والنباتات الصغيرة، وهاهم الرجال ينجحون، يحملون قدرًا من القرص، فرحوا بما أنجزوا.

وفى المساء التالى جمعتهم صحراء قريبة، وضعوا أحمالهم، يثرثرون طويلا فى انتظار وهج الشمس الجديدة.....

لم يجدوا نورًا ولا أشعة يعرفونها....

أعلنها أحدهم فى حسرة: «يبدو يا أصدقاء أن ظلام الليل أقوى كثيرًا من نور الشمس»......

فعقب كبيرهم فى سكينة وهدوء:

«ياأبنائى، لأننا نحب القنص... نسينا أن قرص الشمس يكره الأسر»

* * *

رحلة صيد

لايكف عن الثرثرة، حتى وهو يرصد سمكة فى النهر أو طائر فى السماء، فتهرب منه فريسته دوما.

المدهش أنه لايشعر بالندم ولابالألم ولاحتى بقدر ضئيل من الكدر. على العكس من زوجته، لكنها لاتعرف الهدوء من جراء ثرثرته حتى أثناء نومه، بينما يخلو كهفهما من الزاد والزواد.

فكرت الزوجة أن تجعله ينظر مليًّا فيما حوله، فزرعت الريحان ينمو فى طريقه وهو ذاهب إلى النهر أو وهو معلق بالسماء.

نجحت...

وفيما كان ينمو الريحان وكأنه نبتة زرعها الجن. بينما امتلأت به الطرقات، وعبأت رائحته خياشيم الكائنات، وطوت أوراقه سماء الكهف.. تاه طريق النهر منه. انشغل الزوج بالريحان أكثر كثيرا عما تمنته الزوجة وتلبسه الصمت، فقالت فى نفسها: الثرثرة أفضل!!

فشلت...

عادت وقررت أن تبنى عشًا معلقًا بأفرع شجرة كبيرة فيما بين السماء والأرض، ربما تجعله يخرج عن صمته.

قال لها: أنا لاأعرف البناء، ثم لماذا أتعب نفسى، سوف أجد حتمًا فرعًا كبيرًا يلائمنى للنوم وحدى؟!

ماحدث بالضبط أن ذهبت الزوجة وحدها إلى شاطئ النهر، سمعت الأطفال يصرخون فى مرح وهم يلعبون، بينما الأسماك تقفز فوق الماء وتجرى بغير هدى، والطيور البيضاء تعلوها.

أسرعت إلى زوجها ليرى ماترى، بدت مياه النهر براقة جميلة أكثر كثيرًا عما قبل، ليس من جراء أشعة شمس الغروب، بسبب أن رافقته رحلته للمرة الأولى. ولما امتلأت السلال بالأسماك الطازجة، عادا معًا سعيدين وقد تشابكت كفاهما من رحلة صيد لم يخطط أحدهما لها.

* * *

فتـاة المـرآة

كانت الفتاة الجميلة تئن مثل كلب مسعور يجرجر نفسه على الأرض إلى حيث لايدرى. بينما صديقتها المرآة الكبيرة تصيح عليها: «لاتتركينى وحدى».

تذكرت المرآة ماقالته فى نفسها يوم أن تصادفا: «أخيرا وجدت لى موطنًا فى تلك القرية الغريبة». فأهل تلك القرية - قرية الصيادين - انشلغوا عنها بالتقاط الأسماك الخبيثة من مياه البحيرة القريبة. بينما انشغلت الفتاة بجمالها أكثر.

ولأنها جميلة بحق تعلق بها كل شباب القرية، وتعلقت هى بالمرآة، ففى الفجرية تحمل المرآة وتخرج من الكهف الجبلى تغمز بكلتا عينيها إلى عينى الشمس، تفهم الشمس وتتوارى قليلا، وفى المغربية تشوح بكلتا يديها إلى قرص القمر.. يفهم القمر ويخبو قليلا. فيقول الصيادون فى جلسات السمر وهم حول النار: «إنها فعلة الفتاة الجميلة، لكن جمالها لايغنينا عن نور الشمس ولا هالة القمر، لو تزوجت وملأت طرقات القرية بأطفال يصبحون صيادين مثلنا كان ذلك أفضل». لم تعلن الجميلة عن غضبها، كل ماعلقت

به: «اتركوا لى برهة من الوقت، لعلى أصبح أكثر جمالا»!. وتعلقت بالمرآة أكثر كثيرا عما قبل، فبدت وكأنها ولدت مع توءمها المرآة واستغنت بها عن كل سكان القرية.

واعتادت الجميلة فى الفجرية والمغربية تسأل المرآة: «هل أصبحت أكثر جمالا؟»، ترد المرآة: «لم يصل شعرك الناعم إلى الكعبين كعروس البحيرة، ولاأرى العينين واسعتين لامعتين كعينى سمك البحيرة، ولاشفتيك مبرومتين.. ولا.... « . فلا يطول الحوار، حتى يتجدد فى اليوم التالى، هكذا بلا نهاية. فيما أصبح شباب القرية على فريقين، جماعة منهم تعلقوا بالجميلة يلوحون لها لو تقبل الزواج بأحدهم، وجماعة منهم تعلقوا بالمرآة أكثر!

طال الحوار بين الجماعتين، أصبح الحوار صراخًا، لم يعد يحسم أمرًا.. حتى أيقن أهل القرية أن شبابهم انشغلوا عن الفتاة الجميلة ومرآتها التوءم.

للمرة الأولى تشعر الجميلة بالحيرة ثم بالغضب، وحتى منتصف الليل، لم يغفل لها جفن....

قررت أن تخرج إليهم....

فلما خرجت، لم تجدهم...

شعرت الجميلة وكأنها تسكن قرية يقطنها الأشباح، ربما لأنها نسيت أن من حق أهلها النوم والراحة!!

لم يعد يمكنها أن تفعل شيئًا بعد أن طرقت الأبواب بشدة، وصرخت بقوة عليهم لم تفعل شيئًا بعد ذلك سوى البكاء.. وأن

تعـدو بعـيـداً عن المرآة، حتـى بدت وكـأنهـا تئن مـثل كلب مـسـعـور يجرجر نفسه على الأرض وإلى حيث لايدرى.

* * *

فصول السنة

فصول السنة على أرض تلك الجزيرة النائية كريمة معطاءة ففى الشتاء تعدهم السحابة المخملية بالماء الزلال طوال العام، وفى الربيع يتزوج الأولاد والبنات وكذا الكائنات من حولهم ومن فوقهم وتحتهم عند الشاطئ.

يأتى الصيف لترميهم أمواج البحر الشقية بكائنات يجهلونها لكنها شهية، وعندما يصل الخريف يأتى زمن الحصاد معه.. مع ذلك لايشعر أهل الجزيرة بالرضا، يملؤهم الضجر من شهيق وزفير أنفاسهم. لايكفون عن التساؤل: لماذا فصول السنة؟

يأتى الشتاء يلعنون برده وصقيعه، يتبعه الربيع يظنون أن الزهور أسعد منهم، يجىء الصيف يشكون من حرارته، يحط الخريف يلعنون مشقة حصاد ثمار أشجارهم!!

اجتمعت فصول السنة، وكان قرارهم الغامض، حل ميعاد الشتاء، فأخذ الثلج يتساقط بشدة وبلا انقطاع، حتى امتلأت الطرقات بذاك الأبيض الهش البارد، وزاد الشعور بالبرد، حتى تعبت النار معهم ولم تعد تكفيهم. فلما جاء الربيع وتراءى لسكان

الجزيرة حلم واحد غريب وغامض: لو استمر الدفء البادى هكذا، ستغرقهم مياه الثلوج المنصهرة، كان عليهم تحصين ديارهم من فيضان لا حيلة لهم أمامه.

فاضت المياه امتلأت الطرقات بالوحل، لم يكن لهم من حيلة إلا سكنى أعالى الجبل، سرعان ماجاء الصيف، وهبهم حرارة شمس لم يشعروا بها من قبل، لم تتركهم قبل أن جفت الأرض المزروعة وذبلت الزراعات وهلكت، ونضبت ضروع حيواناتهم.

وفى صباح جديد، فركوا عيونهم، واستيقظوا. قرروا أن يجلسوا مع حكيم جزيرتهم يسألونه: «لماذا فصول السنة؟!».. نصحهم بالانتظار!!

لم ينتظروا، ألقوا بقاربهم الكبير فى البحر، جدفوا نحو الجزيرة الأخرى، فوصلوا قبل أن تصل موجات البحر، بدت الجزيرة مهجورة، كل الأشياء ساكنة من حولهم.. حتى الشمس عرفوها تغرب عندما أغمضت جفونها، زراعات الأرض لاتنمو ولاتهلك وإن هرسوها، عرفوها بروائحها الزكية.

انشغلوا فى نحت حصون بحجم أجسامهم، وبالبحث عن جدول يرتوون منه، ثم بقدر مناسب من شعلة صغيرة جدًا من النار.. لم يجدوها. تابعوا بإصرار جماعى، شعروا بالتعب ولم يسقطوا مافى رأسهم.

ماحدث بالضبط أن سقطت أجسادهم من شدة التعب مثل حجر صلد، فأشفقت الأرض المشقوقة عليهم، واحتوتهم بحنان

وخفة دون أن تسألهم إن كانوا حقًا يبغون ذاك الحنان وتلك الخفة.
لم تترك الأرض لهم الفرصة كى يسألوا سؤالا واحدًا، كانت على يقين غامض بأن سكان الجزيرة الجدد لن يشكوا ثانية!

* * *

بئر عين الحياة

كانت الفتاة القبيحة أفقر بنات القرية، ولاتعرف كيف تتخلص من القبح والفقر؟ تعيش مع والديها داخل كوخ من الصفيح، الحار صيفًا والبارد شتاًء.

ذهبت إلى بئر «عين الحياة» عرفت من عجوز حكاية البئر. فقد تشققت الأرض وانبثقت مياهها فى القرية منذ سنوات بعيدة على غير توقع.. زلزلت الأرض زلزالها، هاجمهم الرعد والبرق، ثم هبت عاصفة شديدة، ذهبت العاصفة وتركت القرية محطمة تمامًا، مع ذلك قال الجميع: إن العاصفة فعلت ذلك من أجل أن تترك لنا تلك البئر، ولكى نبنى قرية جديدة حولها: فأطلقوا عليها اسم «بئر عين الحياة». قالت الفتاة الحزينة للبئر: كنت سببًا فى سعادة أهل القرية، إلا سكان الكوخ الصفيح.. أخبرينى كيف أصبح من جميلات أثرياء القرية؟

فقالت البئر: إذاً لك ما أردت حالا، وتصبحين من الجميلات الأثرياء، بشرط أن تنسجى بيدك شالاً بدلاً من الشال القديم، وستبقين كذلك مادمت تغسلينه كل يوم فى مياهى الطيبة.

فى الطريق استقبلها أهل القرية بالدهشة، يسألونها عن سر جمالها.. لم ترد. فور وصولها للكوخ بدأت فى تجهيز الشال، قبل أن تهم بصنع النول الخشبى، أخبرتها الشجرة القريبة: خذى ياجميلة هذا الفرع؟

دهشت الفتاة أن سمعت ماسمعته، قبل أن تخبر الناس أو الشجرة بشىء؟ وقبل أن تنسج شالاً ؟!

صنعت النول، بدأت تنسج الشال الجديد، فقال الخيط الصوفى: اترك الأمر لى. بسرعة اندفعت كرة الخيط وتعلقت بالنول، صنعت شالاً..!

امتلأت الفتاة بالدهشة!!

أول مافكرت فيه أن تخرج إلى شوارع القرية بالشال الجديد الجميل. هنأها الرجال والنساء قبل الأطفال والشباب، لكنها لم ترد التحية ولاتبدى أى قدر من الامتنان، فانفض الجميع من حولها، ذهبوا إلى بئر عين الحياة يعاتبونها، فقالت لهم: أنا أعطى لكل من يطلب منى، مثلكم تماما.

فيما بعد شعرت الفتاة بغصة لم تشعر بها من قبل، كلما سارت فى شارع، لا يلتفت إليها أحدهم، يتركون الشارع، القرية كلها.. فوجدت نفسها وحيدة فوق الطرقات!

دهشت هذه المرة، لأنها تظن أنها لم تفعل ماتستحق عليه هذا السلوك..!! إلا أنها سمعت صوت ضحكة كما الرعد، ورأت أشباحًا

كما البرق.. ما فتأت تصدمها عاصفة شديدة تقتلعها من مكانها وتلقى بها أمام الكوخ الصفيح الحار صيفًا والبارد شتاءً. بينما لم يصب أحد من سكان القرية، كانوا جميعًا خارج القرية هربًا من الفتاة التى تظن أنها مازالت جميلة!!

* * *

عاشق المياه

رغم معرفة أصدقائه به، لم يفهموا أبدًا قراره بالبقاء فى الصحراء وحده، كانوا يعرفون أن بإمكانه أن يتحول إلى مثقاب يغوص فى الرمال أو طائر يصدح فى السماء، المؤكد أنه لن ينشغل بالسحابة الممطرة.. ليس لأنه يملك القدرة على البقاء بلا ماء، لأنه يستطيع جلبها من جوف الصحراء.

نصحه الأصدقاء: احترس من السحابة الممطرة، فهى قادرة على الفتك بك حتى لو تحولت إلى خفاش يعشش فى شقوق الجبال، إنها تفرق الوديان والتلال، فأجابهم مبتسمًا: «لاتشغلوا بالكم، بالنهار سوف تحمينى خيمتى وفى الليل سوف أشعل نارًا وأعمل». اعتقد الأصدقاء أنهم لن يروه ثانية، فتابعوه حتى اختفى فى الأفق.

أصبح وحيدًا، شرع فى العمل، فامتلأت خيمته باللحم المقدد وبالحطب، وقربة ماء مصنوعة من جلد الماعز، وعاش حياة تخصه وحده.. يحلم ويغنى، يعمل ويغنى عليه أن يحفر تلك البئر قبل أن تنفد مياه القربة، اهتدى بالنار إلى شواهد ساعدته.. إلى العشب

النابت والديدان التى لاتتمو إلا فى الأرض الرطبة، فبدأ يدق أول ضربة بالفأس الصغيرة التى هى أصابعه.

فى ذلك الوقت وصلت السحابة الممطرة، فى غرور تساءلت: كيف يعيش هذا الغريب، ولاينتظر زيارتى؟! مكثت فترة ولم يشعر بها، صرخت: هذا الغبى، لو لوح لى بيديه، وقدم التحية، كنت أرحته من مشقة العمل». وفى الليلة التالية ومابعدها .. بقى الرجل يعمل، وأصبح الغناء حزينًا، كلما غاص فى الرمال هالت الرمال وملأت الحفرة، البئر المنتظرة. لقد قاربت مياه القربة على النفاد.

بينما تتابعه السحابة، تضحك: «أية لعبة تلعبها وحدك... لايضيرنى أن ألقى إليك بشىء من أطرافى الممتلئة بالماء، وأنت تستريح، فقط لو رجوتنى». فابتسم لها وقال: «أراك ترتعشين، اقتربى منى إلى جوار النار وأنت تشعرين بالدفء». فى تلك اللحظة أدركت أن هذا الغريب يملك عقلا، أذكى من كل كائنات الصحراء، فهى لاتخشى إلا النار. بسرعة تركت موقع الخيمة والنار.

استشاطت بالغضب الذى كاد يحرقها، فتسيل بعض أطرافها إلى قطرات من الماء، تهوى فوق رمال الصحراء، لا حل عندها إلا مقاتلة الغريب، أخبرته برغبتها، حسب الأمر بحكمة: لقد أضعف الغيظ السحابة الشريرة، والنار جعلتها تعدو بعيدًا .. إذاً هى اللحظة المناسبة.

اندفع، تحـول إلى خـازوق يحـفـر فى الرمـال.. ويغنى، يتـابع فيتحـول إلى رافعـة ترفع الرمـال بعـيدًا.. ويغنى.. تزداد السـحابة غيظًا، تضعف، وقد بدأ جسـدها يرق من فرط ما فقدته على شكل قطرات مياه.

وعندمـا أشـرقت شـمس الفـجـر الجـديدة، صـرخت السـحـابة الشـريرة، وأطلقت سـاقيهـا إلى مكان آخـر... بينمـا الرجل الخـازوق يغـوص.. ويغنـى. فيعلو صـوت الغنـاء أكثـر سـعيدًا برائـحـة الرطوبة التى هى بشائر البئر المنتظرة.

* * *

على الطريق

.. حدث هذا فى الشتاء، أن انتهى من كتابة قصيدة جديدة، لم يستخدم الحيلة كى ينتهى منها، وهو هكذا سائر على الطريق.

كان طريق الشتاء رمليًا، تبدو حبيباته وكأنها تسعى لأن تلتصق ببعضها البعض، فكانت هيئة قدميه عليها غائرة.

.. فلما جاء الربيع، وشاهد الفتاة الجميلة تمر من أمامه فى الاتجاه الآخر، لم يتردد فى قراره كى يضاجعها مضاجعة الأبطال، بطلا لأنه الوحيد الذى فاز بها وقبلته، وقد أحاطتهما مباركة شيوخ الطريق وحراسه.

كان طريق الربيع ناعمًا، تبدو أوراق الأشجار المهروسة، والتى جمعها لمضاجعة جميلته عليها.. لينة. ومن فرط رضاها كستهما بصبغتها الخضراء من عصيرها حتى ضحكت نسوة الطريق وأطلقت عليهما لقب العرسان الخضر.

.. وفى الصيف التالى، راح بعيدًا جدًا، التهبت فروة رأسه من لهيب الشمس، لم ترحمه وزوجته.. وقد نال منهما الوهن.

كان طريق الصيف مختلفًا، كل مااستطاع أن يقوله عنه: إنه على غير ماتوقع فدخل الخيمة. ماأن وضع قدميه على العتبة، حتى تسمر فى مكانه، بدا كأنه سيمد قدميه إلى تحت، يتمنى لو يصنع جذرًا فى المكان.. هيهات.

.. لقد حملته ريح الخريف بعيدًا، وكأن الطرق كلها قد تهدمت، فنسى النار التى تشتعل ليلا، والأشجار التى قد تواتيه مصادفة.

لم ير سوى الرمال التى ماتفتأ أن تميد أمامه إلى مالانهاية، تصنع طريقًا من طريق..

آه من العواصف تجرجره..

آه من الذكريات تؤلمه..

آه من المتربص به هناك ولايراه...

فتمنى لو عاد ثانية إلى الطريق الأولى.. ربما يكتب قصيدة.

* * *

خذ حذرك

سار على الطريق المستقيم نحو نجم سقط من السماء هناك.

كانت الأرض متشققة والعشب جافة من تحته، ولأن الأشجار ماتت عطشًا وانطفأت الحياة من حوله، تعلق بالنجم أكثر.. لايبعد سوى مسيرة ليلة واحدة.

فقالت له الجرذان: خذ حذرك. تمتم فى نفسه: لم أهرب من الموت إلا لأننى حويط وحذر، فقالت له الديدان: خذ حذرك. همهم لأذنيه: النجم البعيد على مسيرة شارفت على الانتهاء.. هناك لايعرف الهلاك. فقالت له أشياء لم تبين له خذ حذرك. غمغم ثم قال بصوت شارف حدود النجم هناك: أستطيع أن أحفر قبرى وأتجاوزه.

فلما كانت أصداء صوت ضحكة طويلة وعميقة وقوية.. زلزلت السماء والأرض والأشياء من حوله.. فهم أن النجم الآفل فى انتظاره رابط الجأش!!

سعادة صياد

فيما كان الصياد سعيدًا وهو يأكل من صيد يومه، دارت رأسه وهو يضرب على صدره بكفه القوية، منتشيًا بما أنجز. وهو على تلك الحالة من الشعور بالعنفوان والقوة، شردت رأسه! سرقه مشهد الكائنات من حوله....

لاشىء سوى الوثوب، بلا تردد ولا سنة. معًا ذهبوا ومعًا عادوا. تلك هى حركة هبوط أسراب الحمام فوق سطح قمة التل الباسقة القريبة..

سرقته أكثر تلك العيون الزجاجية ونظراتها المستقيمة القوية، بلا غضب ولا فرح، بلا اضطراب ولاغرور، عينا السلحفاة تخترق حالا الحاجز المائى الأخير لمياه البحر القريبة، لعلها تطمح لاحتواء العوالم الهوائية هاهنا..

وهذا الصقر السماوى، يعرف مقاصده الداخلية كلها وهو يحوم فوق كل شىء. يبدو هكذا واثقًا من نفسه. بعد أن ترك قرص الشمس الدامى من خلفه والصيد الدامى بين شقى منقاره.

هنا أسقط الصياد ناظريه، مكتفيًا بما تناوله من رصيد صيده، ولا أحد يدرى ماذا يجول فى رأسه وفى صدره..؟!!

* * *

ظل النمل

يحكى أن النملة الملكة لايشغلها شىء سوى تجاوز ظل الكائنات والأشياء، فيما تكون فى مقدمة طابور نمل القبيلة.. حتى أنها لاتنقض على الوجبة الثمينة لحشرة نافقة أو دودة هلكت، إلا فى ضوء الشمس.

خبرتها الأيام أسرار الظل كله. أكثر ماتخشاه ظلا يتحرك، أما ظل الشجرة الباسقة والأعشاب الواطئة.. لاتعيرها اهتمامًا. وبينما يخشى طابور النمل خلفها ظل الصخور والحصى الصغيرة وكأنها لجبل.. ترشدهم بثقة العارف المحنك.

إلا ماحدث ذات يوم.. نالت منها الحيرة، إذا بالظل والنور يتبادلان فوق الجميع، كانت القرود الشرسة تتقافز فى الهواء، ولاظل ثابت لها على الأرض، فتهرس من أفراد القبيلة الكثير، وتشتت الطابور الطويل.

فور أن تجاوزت الملكة أرض المعركة، واستقرت فى بقعة ضوء ناصعة. وقفت، نظرت إلى بقايا أفراد المملكة، صاحت قائلة: «أقبلوا.. هنا نور الشمس من غير ظل»

فلما تجمعوا وصنعوا معًا بقعة سوداء على الأرض، يقول الراوى.. إن أصغر النمل طلبت الكلمة، صرخت تعلل سر ماحدث قائلة:

«لأن النمل بلا ظل، حتى النملة الملكة. لذا لاتخشانا الكائنات كلها»

ومنذ ذلك الزمن البعيد، لايرى الرائى أفراد المملكة إلا والملكة على قمة طابور النمل المتراصة فوق بعضها البعض.. تصنع ظلا.

عاد وأكد الراوى يقول:

«بعد تلك الواقعة، لم تهرسها أقدام الظل أبدًا ......

ربما بسبب ظلهم السائر إلى جوارهم دومًا، أو لأن عيون الملكة ماعادت ترشدهم وحدها.. شاركتها عيون النمل كله!!

* * *

ولـــدوبنـت

كان الوقت قد أزف..

البنت ناهدة الصدر تعدو على غير هدى، والولد نابت الذقن على أثرها فوق الرمال.. سحابة سوداء لأسراب من الطائر الغامض فوقهما، وشمس عاجزة عن قهر العتمة المنصوبة بينهما. الولد غرس أسنانه فى سبابته ثم صاح، يتمنى لو تسمعه. دون أن تحذره العتمة الملعونة داعبته، فسقط على الرمال مذعورًا، البنت تتشمم حبيبها، زحفت قدر طاقتها، عجزت ماحدث.. أن تلبستهما نار تخصهما، فتملكتهما خفة أقدام غزالة، وحلقت بهما جناحا نسر علوى، لاينغص عليهما سوى العتمة، مع ذلك لم ينتظرا ولو فرجة صغيرة فيما بين أسراب الطيور الغامضة فوقهما.

الولد والبنت وعلى غير اتفاق حدقا إلى هناك، فأشفقت الشمس عليهما وقالت:

«لست أدرى ماالذى يمكننى أن أفعله؟!»

عادا ونطقا معًا بالتعويذة السحرية: «أنا هنا ياحبيبى»، «أنا هنا

ياحبيبتى».... دون أن يدريا، انجذبا، تجاورا، ومعًا اتجها ناحية عتبة نار طيبة لايرونها!!!!

اقتحما النار معًا، فاهتزت الأرض من تحتهما. البنت ارتطمت بالولد، فابتهج الولد لرائحتها التى سرعان ماتعرف عليها...

معًا صرخا صرخة صحراوية، خلاء، فذهبت ولم تعد...

تشابكت كفاهما...

أقسما ألا يتركا لأناملهما أن تتحرر أبدًا..........

* * *

الكاتب في سطور

الروائى السيد نجم

- تخرج فى كلية الطب البيطرى عام ١٩٧١ . جامعة القاهرة.
- وكلية الآداب (قسم الفلسفة) عام ١٩٨٠ . جامعة عين شمس.

العنوان البريدى:

- ٢١ شارع عوض فهمى . سراى القبة
- رقم بريدى: ١١٣٣١ القاهرة . جمهورية مصر العربية.

- عضو اتحاد الكُتاب.
- عضو نادى القصة.
- عضو مؤسس لجماعة «نصوص ٩٠» الأدبية.

الإصدارات:

- مجموعة قصص «السفر» . دار الثقافة الجديدة ١٩٨٤.
- مجموعة قصص «أوراق مقاتل قديم» . هيئة الكتاب ١٩٨٨.
- رواية «أيام يوسف المنسى» . نصوص ٩٠ عام ١٩٩٠.

● مجموعة قصص «المصيدة» ـ هيئة الكتاب ١٩٩٢.

● مجموعة قصص «لحظات فى زمن التيه» ـ هيئة قصور الثقافة ١٩٩٣.

● رواية «السمان يهاجر شرقًا» ـ هيئة الكتاب ١٩٩٥.

● دراسة «الحرب: الفكرة ـ التجربة ـ الإبداع» ـ هيئة الكتاب ١٩٩٥.

● مجموعة قصص «عودة العجوز إلى البحر» ـ دار الوفاء ٢٠٠٠.

● رواية «العتبات الضيقة» ـ هيئة الكتاب ٢٠٠١.

● كتاب «المقاومة والأدب» ـ هيئة قصور الثقافة ٢٠٠١.

● كتاب «المقاومة والحرب فى الرواية العربية ـ دار التحرير ٢٠٠٥.

● كتاب «المقاومة في الأدب الفلسطيني.. الانتفاضة نموذجا» ـ اتحاد كتاب فلسطين ٢٠٠٦

إصدارات فى أدب الطفل:

● قصص «سامح يرسم الهواء» ـ دار المعارف.

● قصص «الأسد هس والفيل بص» ـ دار المعارف.

● قصص «حكايات القمر» ـ دار الهلال.

● قصص «المباراة المثيرة» ـ دار المعارف.

● «الأمومة فى عالم الحيوان» ـ دار المعارف.

● رواية الأشبال على أرض الأبطال» ـ كتاب قطر الندى ـ هيئة قصور الثقافة.

● قصص «روبوت سعيد جدا» ـ دار الهلال.

النشاط الأدبى:

- عضو مؤسس اتحاد كُتَّاب الإنترنت العرب (أمين السر)
- عضو اتحاد الكُتاب المصريين.
- عضو نادى القصة.
- حصل على العديد من الجوائز وشهادات التقدير.
- حضور العديد من المؤتمرات الأدبية.
- قررت وزارة التربية والتعليم اقتناء رواية «الأشبال على أرض الأبطال».

النشر المشترك:

- عدد خاص عن سلسلة «أدب الحرب» ـ هيئة الكتاب ١٩٩٥م.
- كتاب المقهى الثقافى ـ هيئة الكتاب ١٩٩٧م.
- كتاب الجمهورية ـ دار التحرير ٢٠٠٠م.

تحت الطبع:

- رواية «الروح وماشجاها».
- دراسة «المقاومة فى الأدب العربى».
- دراسة «طفل القرن الواحد والعشرين».
- «لغز الكائنات الفريدة» ـ أطفال ـ دار المعارف.

التأليف فى مجال الدراما:

- تمثيلية «نور الظلام» شبكة إذاعة البرنامج الثقافى عام ٢٠٠٢.
- تمثيلية عن قصة قصيرة بمجموعة «أوراق مقاتل قديم» بإذاعة الإسكندرية عام ٢٠٠٢م.
- مسلسل «ساعة الصفر» شبكة إذاعة البرنامج الثقافى عام ٢٠٠٣م.

الكاتب فى سطور

السيد نجم (السيد عبد العزيز نجم)

المؤهل (١ - بكالوريوس طب وجراحة الحيوان. ٢ - ليسانس الآداب - قسم الفلسفة).

عضو (اتحاد الكُتَّاب - نادى القصة) - أمين سر اتحاد كُتَّاب الإنترنت العرب.

النشر السابق..

- مجموعة قصص «السفر» - دار الثقافة الجديدة (عام ١٩٨٤).
- مجموعة قصص «أوراق مقاتل قديم» - هيئة الكتاب (عام ١٩٨٨).
- رواية «أيام يوسف المنسى» - مطبوعات نصوص ٩٠ (عام ١٩٩٠).
- مجموعة قصص «المصيدة» - هيئة الكتاب (عام ١٩٩٣).
- مجموعة قصص «لحظات فى زمن التيه» - هيئة قصور الثقافة (١٩٩٣).
- رواية «السمان يهاجر شرقًا» - هيئة الكتاب (عام ١٩٩٥).

- «كتاب أدب مقاومة» الحرب: الفكرة - التجربة - الإبداع (عام ١٩٩٥).
- مجموعة قصص «عودة العجوز إلى البحر» - دار الوفاء (عام ٢٠٠٠).
- رواية «العتبات الضيقة» - هيئة الكتاب (عام ٢٠٠١).
- كتاب أدب مقاومة «المقاومة والأدب» - مديرية ثقافة القاهرة الكبرى ٢٠٠١ م.
- كتاب «طفل القرن الحادى والعشرين» - دار الوفاء ٢٠٠٣ م.
- كتاب أدب مقاومة: «المقاومة والحرب فى الرواية العربية» - دار الجمهورية ٢٠٠٥ م.
- كتاب أدب مقاومة: (المقاومة والقصص فى الأدب الفلسطينى.. الانتفاضة نموذجًا) اتحاد الكُتَّاب الفلسطينيين ٢٠٠٦.

نشر مشترك..

١. «المقهى الثقافى» الكتاب الأول عام ١٩٩١ م (هيئة الكتاب).
٢ - القصص الفائزة فى مسابقة أدب الحرب عام ١٩٩٧ م.
٣ - «كتاب الجمهورية.. قصص قصيرة» دار التحرير عام ٢٠٠١ م.

فى أدب الطفل

١ - قصص «سامح يرسم الهواء» - دار المعارف.
٢ - قصص «حكايات الأسد هس والفيل بص» - دار المعارف.
٣ - قصص «حكايات القمر» - كتاب أولاد وبنات - دار الهلال.
٤ - قصص «المباراة المثيرة» - دار المعارف.
٥ - «الأمومة فى عالم الحيوان» - دار المعارف.

٦ - «لغز الحيوانات الفريدة» - دار المعارف.

٧ - «الأشبال على أرض الأبطال» قصة للطفل - قطر الندى.

كتابة دراما إذاعية

- تمثيلية لإذاعة البرنامج الثقافى (أُختيرت لمسابقة مهرجان الإذاعة والتليفزيون العربى لعام ٢٠٠٢ باسم «نور الظلام».

- إنتاج مسلسل إذاعى (ساعة الصفر)..)أُختيرت لمهرجان الإذاعة والتليفزيون ٢٠٠٣ م.

- إعداد تمثيلية إذاعية بقلم منير عتيبة» بإذاعة الإسكندرية «حيرم العضل».

تحت النشر

- رواية «الروح وما شجاها» - مطبوعات اتحاد الكُتَّاب. / دراسة «المقاومة فى الأدب العربى» اتحادالكُتَّاب العرب/ «لغز الكائنات الفريدة - دار المعارف.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org
E - mail : info @egyptianbook.org